مصطفى يحفوفي
الله يتجلّى في الجمال
دار الأمير

قال رسول الله صلى الله عليه وآله :

إن الله جميل يحبُّ الجمال . .

الله يتجلّى في الجمال

مصطفى يحفوفي

حقوق الطبع والترجمة محفوظة للمؤلف

1429هـ - 2008م

المحتويات

تصدير..... 2

كتب كريمة وكلمات نبيلة..... 4

الله يتجلّى في الجمال..... 8

القسم الأول: جمال الكون وشَغَفُ الإنسان به..... 11

سراية الجمال في الكون 11

الإنسان والجمال 13

القسم الثاني: القرآن والجمال..... 18

عناية القرآن الكريم بالجمال 18

دليل الجمال في القرآن 23

القسم الثالث: كيفية الاستدلال بالجمال..... 26

أسس دليل الجمال 26

كيفية الاستدلال بالجمال 41

ملاحظات ختامية..... 47

ملحق..... 50

مقدمة 50

خطبة الطّاووس..... 60

الفهرس الموضوعي لآيات الجمال..... 66

التصنيف الموضوعي للآيات 68

جمال المخلوقات وما فيها من زينة 68

عناصر الجمال (اختلاف الألوان) 69

الأثر النفسي للجمال (البهجة) 69

دلالات الجمال 70

الصفات الإلهية 71

إهداء

أبي .. أمي ..

إن لكُمَا في كُلِّ مشهَد يجتَذبُني من مَشَاهد الجَمال مَنزلاً...

وفي كلِّ مَوطن يُذهلني من مَواطن الجَّلال حُضُوراً...

فإلى رُوحَيْكما الطَّاهرتين المعجونتين بنَقَاء المحبّة،

والمُفْعَمتين بأسرار الجمال...

أُهْدِي هَذَا البَحث

مصطفى..

تصدير

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على أشرف خلقه محمد وآله الطاهرين.

نشر هذا البحث على صفحات مجلة "رسالة النجف" التي ترعاها جامعة النجف الأشرف للعلوم الدينية في لبنان- حاريص، وذلك في عددها المزدوج (7-8) والصادر في شهر شعبان 1427هـ/تشرين الأول 2006م.

ولم يكن واردًا في الحسبان حينها أن يُصار إلى نشر هذا البحث في كتاب مستقل، غير أن تلقّي القرّاء الكرام له بحسن القبول، وما تركه في نفوسهم من طيّب الأثر، وهو ما لمسناه من خلال جملة من اتصالاتهم وأحاديثهم المباشرة، أو عبر ما أتحفنا به بعض الفضلاء منهم بما سطّروه من كتب قيمة وكلمات طيبة نعتزّ بها، ونقدِّر غنى مضامينها وفوائد معانيها، الأمر الذي حدا بنا إلى تصدير البحث بجميل ما سطّروه. أضف إلى ذلك الحثّ الدؤوب من قبل بعض الإخوة الأفاضل، حرصًا منهم على تعميم الفائدة.

كلّ ذلك أوجد لديّ القناعة برجحان إعادة النشر، متجاوزاً ما كان يعتريني من تردد اقتضاه عدم التمكن من معالجة بعض النقاط المهمة الجديرة بالمعالجة والدرس، وذلك من قبيل النقاط التي أوردناها في ذيل البحث تحت عنوان: ملاحظات ختامية، مما أوقعني في حيرة بين أن أبادر إلى نشر ما سمحت بإنجازه الظروف الصعبة، أو أن أنتظر الفرصة المناسبة لإتمام ما ينبغي إتمامه !! فرأيت أن احتمال انجلاء تلك المصاعب وحلول فرصة مؤاتية هو احتمال بعيد في المدى المنظور، لذا سلمت بالميسور متعللاً بالمثل القائل: ما لا يدرك كله، لا يترك كله، أو جلّه.

ثم إنني وإن كنت قد حافظت أثناء الإعداد لهذه الطبعة على الصورة الأصلية للبحث بشكل عام، إلا أن ذلك لم يمنع من إجراء بعض التعديلات وزيادة بعض الإضافات مما وجدته مناسبًا ومفيدًا. فكان أن توسّعت قليلاً في معالجة بعض المطالب، كما أنني قمت بإضافة ملحق يتضمن نص خطبة الإمام علي عليه السّلام التي يذكر فيها عجيب خلقة الطاووس، مع مقدمة تحليلية للخطبة. وقمت أيضًا بإعداد فهرس موضوعي للآيات القرآنية التي تتحدث عن الجمال المحسوس، والذي اتخذناه بالخصوص موضوعا لبحثنا هذا.

وأخيرًا.. أود أن أتوجّه بأسمى آيات الشكر لكل من خصّ البحث بشيء من عنايته سواء من الناحية المعنوية أو العملية، وأخصّ بالذكر فضيلة الأخ الكريم الشيخ يوسف الفقيه، داعيًا المولى سبحانه أن يتقبّل منا جميعًا ويشملنا بواسع رحمته، إنه حسبنا ونعم الوكيل.

قصيدة قيِّمة خطّتها يراع الشاعر المبدع

علي وهبي دهيني

سبحانَ ربي ذي الجلال لكماله سجدَ الكمالْ
سلني أُجبْك مناديًا من دونِ بحثٍ أو جدال
قمْ وارنُ في هذا الوجود متجاوزًا أقصى الخيال
فالكونُ أشرقَ زاهيًا بالحسنِ من بعدِ اختيال
والروضُ يضحكُ ثغرُه لَمَّا تنهَّدَ للغزال
والشمسُ أرختْ سحرَها وتبخترَتْ فوقَ التلال
والبدرُ يُفتِنُ وجهُه إن كانَ بدرًا أو هلال
والنُجمُ لفَّتْ نورَها في مبسمِ الأفلاكِ شال
والليلُ يُسكِر عِشقَنا في كأسِه يحلو الوِصال
والفجرُ يسلخُ صبحَه من عتمةٍ خلفَ الجبال
والبحرُ يركضُ هائمًا لينامَ في حضنِ الرمال
والنهرُ سبَّحَ عازفًا لدلالِهِ رَقَص الدلال
والغيثُ يَهمي كلّما تَظمى الخمائلُ للزُلال
والعمرُ بعضُ كآبةٍ من دون دعدٍ أو دلال
كلُّ الذي قد قلتُه لم يكفِ في ردِّ السؤال
دنياك رُغمَ أفُولِها بالحُسنِ وارِفَةُ الظِّلال
فاللهُ أغْدَقَ نورَه حتى تجلَّى في الجمال

كتاب كريم وردنا من الشاعر الأديب

جهاد الزغير

بسم الله الرحمن الرحيم والصلاة والسلام على أشرف خلق الله، محمد بن عبد الله صلى الله عليه وعلى آله الطيبين الطاهرين..

في البدء كانت الكلمة الركن الأول للحوار الذي نحتاجه ونكاد نَهلك دونه.

والكلمة كانت وما زالت سلاحك الأمضى، يا من ركب خيلها ومضى إلى الأرحب الأوسع.. لك مني ألف تحية وسلام.

بحثُك هذا أدهشني، هو مزجٌ لطيف بين الفلسفة والعلم واللغة والدين و...

سَوْقٌ جميل للأدلة والبراهين التي تحاكي العقل حينًا والحسّ والذوق أحيانًا.

دراسة الجمال كونه جمالاً، أمرٌ محمود، والأحمد أن ندرس الجمال كدليل وطريق يوصلنا بلا شكّ إلى صانعه وخالقه ومُبدعه، فمَثَل الثلج والشكل السداسي مثَلٌ رائع بكلّ ما جاء فيه وما بُني عليه، أما تاريخيّة انتقال الإنسان من دور المتلقّي للجمال إلى دور الصانع والمُنتج والمُبدع، فهي نظرة ترسم بوضوح عمق الصلة وجدلية العلاقة التي تربط الإنسان بالجمال، تلك العلاقة التي تبدأ بالجمال كمؤثّر وعلة لتنتهي به كمعلول وأثر.

حقيقة الأمر، أنني أُسرت بتقسيم البحث، وبعنونة الأقسام الثلاثة، وما تحتويه من أفكار رئيسية، وأكثر ما أسرني حديث المفاضلة بين الجمال الطبيعي والجمال الفنّي، فعرضك للاتجاهين المتعاكسين المنتجين للجمال كان راقيًا

وواعيًا في آنٍ. أما الاستدلال بفكريهما للإجابة على السؤال الكبير (هل الجمال أمر مقصود في عالم الطبيعة)؟ فقد كان دليلاً واضحًا على علميّة البحث ودقّته.

فضيلة الشيخ مصطفى اليحفوفي جزاك الله خيرًا ووفّقك.

جهاد الزغير

كلمات عذبة نشرت تعقيبًا على البحث في أحد مواقع الإنترنت بقلم الأخت العراقية الفاضلة المهندسة (فرح)، وقد نقلناها ببعض التصرف

بسم الله الرحمن الرحيم

لأول مرة في حياتي اقرأ بحثًا في العقائد بمثل هذه السلاسة والبساطة، كلماته تنساب كالشلال الهادي.

قرأته أكثر من مرة.. وكلّما قرأته أراني أقرأ شيئًا جديدًا لم أقرأه من قبل.. كلماته ملكت قلبي وملأت عقلي..

أَنظر إلى السماء فأجدها غير السماء التي عشقتها.. إنها أجمل.. كل ما في الكون صار أجمل.. فكيف لم أنتبه لكل هذا الجمال..

هذا الجمال الذي ارتبط بالنور الإلهي..

فالله سبحانه وتعالى ربط الجمال بالنور ولم يربطه بالعتمة.. حيث أضاء بنوره على موجوداته.. فكساها حُسنًا.. فـ{اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}.

منذ الأمس وأنا أقرأ القرآن.. قراءة مختلفة وأستمع إلى القرآن.. سماع عاشقٍ.. شغفٍ بهذه الكلمات.. فوجدتها كأنها وحي يوحى لا كلمات تقرأ..

أستاذي دمت لنا.. وبوركت السفينة التي حملتك.

فرح

الله يتجلّى في الجمال

قال بعض أهل المعرفة: إن الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق، وهو قول قد بلغ الغاية في الصدق، وأدرك النهاية من الدّقة والعمق، إذ ما من عاقل يَنشُد الحق ويجانب التعصب إلا وهو يجِد بين يديه دروبًا مُمَهَّدة ومسالكَ مُعبَّدة تقوده إلى بواطن المعرفة، وتُفضي به إلى مواطن اليقين. يستوي في ذلك من لم يحظَ من نور العلم إلا بقليله، ومن تبحّر فتوغّل واستفاض. فهما في أصل امتلاك الطريق إلى معرفة الله مشتركان، وإن اختلفت الحال بينهما بعد ذلك في عمق الدراسة ودقّة البحث وتنوّع الشِعَاب.

وقد انعكس هذا الواقع على كتب العقائد وعلم الكلام، فاحتوت على جملة كبيرة من الأدلة التي تتناسب وطلابَ المعرفة، مهما اختلفت مستوياتهم العلمية أو تباينت قدراتهم العقلية، فكان من بينها ما هو من قبيل ما استدل به الأعرابي حين قال: (البعرة تدلّ على البعير، وأثر الأقدام على المسير، أفسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، لا تدلان على اللطيف الخبير؟!)[1].

كما كان من بينها أيضًا ما هو من قبيل (دليل النظم)، والذي يتّخذ من سنن الكون ومن دقّة الصنع آيةً تحكي عن وجود الصانع وسعة علمه وعظمة شأنه.

وتتوالى الأدلة بعد ذلك وصولاً إلى دليل الوجوب والإمكان، ودليل العلة والمعلول، ودليل صرافة الوجود... وغيرها من الأدلة العقلية والفلسفية. بل تسلك كتب العقائد سبلاً

1 - بحار الأنوار، العلامة المجلسي: 66/134.

معرفيةً أخرى فتطرق باب البداهة وتستلهم الفطرة المغروزة في كيان الإنسان والمجبولة بطينة وجوده، ثم تمضي قُدمًا فتسترشد بآيات القرآن الكريم وبكلمات آل بيت النبوة عليهم السّلام والتي تُعلّمنا أن معرفة الله سبحانه أوضح من أي برهان وأسبق من كل دليل، وفي هذا الباب نقرأ قوله تعالى: {اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ[1]}، ونقرأ أيضًا قول أمير المؤمنين عليه السّلام في دعاء الصباح: (يا من دلّ على ذاته بذاته، وتنزّه عن مجانسة مخلوقاته)[2]. وكذلك قول الإمام الحسين عليه السّلام في دعاء عرفة (هامش): (كيف يُستدل عليك بما هو في وجوده مفتقر إليك، أيكون لغيرك من الظهور ما ليس لك، حتى يكون هو المظهر لك، متى غبت حتى تحتاج إلى دليل يدلّ عليك، ومتى بعدت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك، عميت عين لا تراك عليها رقيبًا)[3].

والخلاصة هي أن كتب العقائد المتداولة قد استفاضت في عرض الأدلة، فتناولت ما هو في منتهى البساطة والسهولة منها، كما تناولت ما يمثّل الغاية في الدقّة والتعقيد، وقد اهتمّت بعض هذه الكتب اهتمامًا خاصًا بدليل النظم فتتبّعت العشرات من موارده. ولكنها وعلى الرّغم من ذلك كلّه قد غفلت عن آية هي من أجلى الآيات الإلهية على صفحة الكون، فلم تتّخذ منها دليلاً، وهذه الآية هي آية (الجمال)، والتي أولاها القرآن الكريم قدرًا كبيرًا من العناية والاهتمام.

موضوع البحث وحدوده

إن غنى الكون بالجمال وانشداد الإنسان إليه من جهة، وعناية القرآن البالغة به من جهة ثانية، كانا هما الداعيين

1 - سورة النور من الآية 35.

2 - بحار الأنوار: 84/339

3 - بحار الأنوار: 95/226.

لكتابة هذا البحث. ولذا سنحاول دراسة الجمال بما هو آية من آيات الله في الكون تدلّ عليه سبحانه، وتشير إلى غنى صفاته.

فليس المقصود بالبحث إذًا دراسة الجمال على إطلاقه، ولا معالجة جملة من حيثيّاته المختلفة، وإنما المقصود هو التعرّض لبعض جوانبه مما له دخالة في تشكيل الدليل على وجود الله سبحانه.

ولذلك رأينا أن نقسّم البحث إلى ثلاثة أقسام رئيسية، يتناول أولها الحضور الواسع للجمال في الكون، ويبيّن عمق صلة الإنسان به، ليتضح بذلك ما للجمال من أهمية تؤهّله لاحتلال موقعه الذي يستحقه كدليل بين الأدلة المعتبرة على وجود الصانع الحكيم.

ويتناول القسم الثاني مدى عناية القرآن الكريم بالجمال، ويبيّن كيف أن القرآن قد نصّ نصًا صريحًا على الجمال بما هو آية من الآيات الإلهية البيّنة، وإن أغفلته كتب العقائد المتداولة، أو قلّ اهتمامها به.

وأما القسم الثالث فيحاول دراسة عناصر هذا الدليل وتبيان الأسس والمقدّمات التي يبتني عليها، وكيفية تأديتها إلى النتيجة المطلوبة، ليستوفي بذلك الشروط المرعية فيما يماثله من أدلة.

القسم الأول:
جمال الكون وشَغَفُ الإنسان به

سراية الجمال في الكون

إنّ ما يفيض به الكون من جمال لا يحتاج إلى برهنة أو تدليل، بل يكفي أن يرسل المرءُ حواسَّه ويفتح قلبَه ليلتقي بالجمال في كل مكان، فالكائنات على تنوّعها بكبيرها وصغيرها، بعظيمها وحقيرها، بجليلها وبسيطها، تُنشد كلها أنشودة مشتركة عذبة اسمها الجمال، وهذا ما يجعل المرء في حيرة من أمره إذا ما حاول الاستعراض أو التتبّع...

فهل يتصفّح جمال الذرّة أم المجرّة؟! حبّة الرمل أم الصحراء والجبل؟!

وهل يلتفت إلى الزهرة بزهوّها، أو إلى النجمة بتلألئها؟!

أيتأملُ الطائر بسحر ألوانه، أم البركان في ثورته وفورانه؟!

أيُلمح إلى تعاقب الفصول، أم إلى تقلّب الليل والنهار، أم إلى هبوب الرياح وحركة السحاب، أم إلى تفتّح البراعم ونموّ الأحياء؟!

ثمّ هل يستعرض من مشاهد الجمال ما يملأ العين أو ما يُطرب الأذن أو ما يسرّ الحواس الأخرى؟!

{وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ اللّهِ لاَ تُحْصُوهَا}[1].

فالجمال يتبدّى ظاهرًا للعيان في كل ناحية من أنحاء الوجود، بل هو يتغلغل في بواطن الأشياء أيضًا ليضفي على أعماقها السّحر والبهاء.

1 - سورة إبراهيم الآية 34

وكلما اتّسعت مدارك الإنسان اتّسعت دائرة الجمال أمام ناظريه وازدادت تنوّعًا وغنى، والشاهد على ذلك هو أن الإنسان بعدما توفّر على بعض الأجهزة الحديثة التي ساعدته في معرفة التركيب الداخلي للأجسام، فإنه وقع في الوقت عينه على كنوز مخبّأة من الجمال، بهرت بسحرها عيون البحّاثة والعلماء فقصّوا علينا في مصنفاتهم الكثير من أخبارها مما لا يسع المجال لاستيعابها، لذا سنكتفي بإيراد مثال واحد من أمثلتها المتعددة.

يقول مُؤلّفا كتاب "العلم في منظوره الجديد":

(إن الطبيعة تزخر بالجمال، ففي عالم الجماد مثلا تُظهر الجيودات والأحجار الكريمة والبلورات جمالاً في التناسق واللون والإشراق لا سبيل إلى إنكاره، ومن الأمثلة اللافتة للنظر على ذلك الندف الثلجية (...) ذات التنوع المدهش في أنماطها، وكلّها تستند إلى الشكل السداسي. ويحتوي كتاب "البلورات الثلجية" على ألفي شكل لنُدَف الثلج، بذل د. أ. بنتلي في تصويرها غاية جهده وعنايته طوال مدّة تقرب من خمسين عامًا... ومصمّمو المنسوجات والفنّانون يستوحون الأفكار من فهرس"البلورات الثلجية": الذي وضعه بنتلي، ويستعينون بما يسمّيه همفريز: معرض الطبيعة الدائم للزخرفة التوشيعية وتصاميم الجواهر والحلي)[1].

إن الجمال الذي تُظهره الكائنات ومنها الثلج لا ينتهي عند حدود ما تتلقّاه العين المجرّدة، بل هو ينبثق من تركيبها الداخلي أيضًا ليُصبح محجًّا تؤمُّه أنظار الفنانين وتتجوّل

1 - روبرت م. أغروس، وجورج ن. ستانيو: العلم في منظوره الجديد، تعريب د. كمال خلايلي، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، جمادى الآخرة 1409 هـ - شباط 1989 م، ص 69-71، والكتاب من سلسلة عالم المعرفة العدد 134. وقد نقلنا النص ببعض التصرف.

في أرجائه عيون المبدعين.

وبذلك يتضافر الظاهر والباطن ليتلوَا معًا حكاية محبّبة عنوانها الجمال.

الإنسان والجمال

يتبدّى الجمال من جهته للإنسان، والإنسان من ناحيته مُهيّأ مجهّز بكل ما يلزمه من أجهزة حسيّة وملكات نفسية لتلقّي الجمال والإحساس بروعته، وهذا ما يمهّد لنا الطريق لفهم ذلك الولع الإنساني الشديد بكل ما هو جميل، والذي نلمس تجلياته في مختلف فترات تاريخ الإنسان وأطوار وجوده.

فعناية الإنسان بالجمال قديمة قدم تاريخه، متنوعة تنوّع مظاهر حياته، وهذا ما سنشرع الآن في استعراض جملة من شواهده:

الشاهد الأول: وهو يتمثّل فيما يُطلعنا عليه بعض العلماء إذ اكتشفوا رسومًا داخل كهوف يعود تاريخها إلى نحو عشرين ألف سنة مضت، وهي رسوم ربما تكون قد أُبدعت لأكثر من غاية، ولكن مما لا شك فيه أن الغاية الجمالية هي واحدة من أبرز تلك الغايات كما يرى بعض خبراء الفنّ. ولذا يعلّق الكسندر أليوت على تلك الرسوم بقوله: (من الجائز أنها كانت ذات غايات سحرية أو غايات وثائقية، لا بأس: أما غايتها الرئيسية فقد كانت ولّما تزلْ إيقاظَ الروح وتنويرَ النفس البشرية. وهذا ينطبق على الفن العظيم في كل زمان ومكان)[1].

1 -ألكسندر إليوت: آفاق الفن، تعريب جبرا إبراهيم جبرا، دار الكتاب العربي بالاشتراك مع مؤسسة فرنكلين للطباعة والنشر، بيروت-نيويورك، 1964، ص117.

ويؤكّد "إروين إدمان" على هذا المعنى نفسه فيقول: (ولم يكتف الرجال بأن يحفروا لأنفسهم كهوفًا ومغارات، بل زيّنوا جدرانها بالرسوم، وبدأ الصانع البشري الذي اعتراه ما في الألوان والخطوط من متع محتملة، يحوم حولها متأنيًا. وإذا نحن تأملنا صناعة الخزف والسلال البدائية لتعذّر علينا التمييز فيها بين عمل الصانع وعمل الفنان على الإطلاق)[1].

إن رسوم الكهوف، وصناعة الخزف والسلال البدائية، تطلعنا بجلاء على قِدَم علاقة الإنسان بالجمال ومدى شغفه بتلقّي نبضاته.

الشاهد الثاني: ومن الشواهد البارزة على عُمق صلة الإنسان بالجمال، أن الإنسان لم يكتفِ بهبات الطبيعة وما تُظهره من سحر وروعة، بل لقد تصدّى هو نفسه لخلق الجمال، فجرّد من اللون والصوت والشكل والحركة... فنونًا متنوّعةً، كالتصوير والنحت والموسيقى...، مما يعبّر عن نزعته الجمالية وينقله من دور المتلقي إلى دور الصانع المبدع.

الشاهد الثالث: ومما يؤكّد على شغف الإنسان بالجمال، سعيه الدؤوب لإضفاء صبغة الجمال على كل جانب من جوانب وجوده، حتى ما يتعلّق منها بأسباب العيش وضرورات الحياة، ولذلك عمِلَ على تجميل وسائله وتزيين أدواته وتأنيق مظهره، فلم يكتفِ من طعامه بسدّ الجوع، ولا من لباسه بستر الجسد، ولا من أدواته بما تؤدّيه من أغراض عملية، بل لوّنها قاطبة بألوانٍ من الزينة والزخرفة، ليشيع فيها جوًا من السحر، ويُضفي عليها لمسة من لمسات الجمال.

الشاهد الرابع: وممّا يُظهر عُمق صلة الإنسان بالجمال

1 - إروين إدمان: الفنون والإنسان، تعريب مصطفى حبيب، مكتبة مصر، ص35.

أن انشغاله بالأشياء الجميلة يتعدّى فترات السكينة والأمان، إلى الظروف الصعبة والأزمنة العسيرة.

يروي فكتور فرانكل من تجربته الشخصية في أحد معسكرات الاعتقال النازيّة ما يلي:

(ذات مساء فيما نحن مستلقون للراحة على أرضيّة السّقيفة نكاد نموت من الإعياء، وفي أيدينا طاسات الحساء، دخل علينا أحد زملائنا السجناء على عجل، وسألنا أن نهرع إلى ساحة التجمّع لنشاهد غروب الشمس الرائع. وفيما نحن وقوف خارج السقيفة شاهدنا الغيوم المنذرة بالشؤم تتوهّج من الناحية الغربية، والسماء كلها متلبّدة بالغيوم ذات الأشكال والألوان المتغيرة على الدوام من الأزرق الرصاصي إلى الأحمر القاني، وكانت سقائف الطين الرمادية الكئيبة تكشف عن فروق صارخة بالمقارنة، في حين كانت بُريكات الماء على الأرض الموحلة تعكس صور السماء المتوهّجة)[1].

فالجمال يستحوذ على أحاسيس الإنسان، حتى في أصعب الظروف وأكثرها حرمانًا.

الشاهد الخامس: وهو يتجلّى في ارتباط الإنسان بالجمال حتى في حالات البله والجنون، وهذا مع ما عبّر عنه ألكسيس كاريل بالقول: (إن الإحساس بالجمال موجود في الإنسان البدائي مثلما هو موجود في أكثر الناس تمدينًا.. بل إنه يبقى حتى عندما ينطفئ نور العقل، لأن الأبله والمجنون قادران على الإنتاج الفني.. فخلق الأشكال أو سلسلة من الأصوات التي تستطيع إيقاظ الإحساس بالجمال ضرورة أوليّة بطبيعتنا)[2].

الشاهد السادس: وهو يكشف عن علاقة الإنسان المبكرة

1 - العلم في منظوره الجديد، مرجع سابق، ص95.

2- ألكسيس كاريل: الإنسان ذلك المجهول، تعريب شفيق أسعد فريد، مكتبة المعارف - بيروت، ط3، 1980، ص154.

بالجمال، إذ يبدو أن الإنسان يبدأ بتمييز الجمال وهو طفل رضيع. يقول الدكتور شاكر عبد الحميد: (إن العين التي يجتذبها الجمال، يبدو أنها تعمل بطريقة فطرية، كما يشير " بكنر "، فحتى الأطفال الرضّع الذين كانت أعمارهم تصل إلى ثلاثة أشهر فقط، فضّلوا أن ينظروا وقتا أطول إلى الوجه الجميل مقارنة بنظرهم إلى الوجوه العادية أو الأقل جمالا)[1].

الشاهد السابع : وآيته أن كل حاسّة من حواسّ الإنسان تختصّ بتلقّي نوع معيّن من المدركات، فالعين تُبصر الأشكال والألوان، والأذن تسمع الأصوات، وهكذا...، ولكن ما يَلفت النظر ويبعث على الدهشة هو اشتراك الحواس كلها في انفعالها بالجمال، إذ يلاحظ أن هذه الحواسِّ تتخطى حدودَ وظائفها الخاصة لتلتقي معًا في انفعالها بنبضات الجمال، هنالك حيث تذوب الفروق بين حاسّة وأخرى، وتغدو الحواسّ جميعها وكأنها حاسّة واحدة مهمّتها الخشوع أمام آلاء الجمال، فالجمال ينقل الحواسّ من الاختلاف والتميّز إلى الاشتراك والتماثل، ويعرُج بها من التجزئة والافتراق إلى التماهي والتوحّد.

الشاهد الثامن: ومما يدّلنا على هَيَام الإنسان بحقيقة الجمال أن الإنسان قد تجاوز في خبرته الجمالية دائرة المحسوسات ومضى قُدمًا ليستشعر الجمال في الأمور المجردة والمعنويات، ولذلك نجده بات يحاول تحسس صفة الجمال في النظريات العلمية والمواقف الإنسانية والقيم المعنوية...

هذه الشواهد الثمانية والتي تمثّل غيضًا من فيض تكشف عن الصلة القديمة والراسخة التي تربط الإنسان بظاهرة الجمال، وعن الاهتمام الكبير الذي يوليه الإنسان لهذه

1 - د.شاكر عبد الحميد: التفضيل الجمالي ص70، سلسة " عالم المعرفة " العدد 267.

الظاهرة والتي تشغل حواسه وتملأ قلبه وتعمّ أوقاته، وتتغلغل في مختلف مَنَاحي حياته حسيّة كانت أو فكرية أو معنوية.

والنتيجة التي يفضي إليها القسم الأول من البحث هي أنه إذا كان للجمال ذلك الانتشار الواسع في أرجاء الكون، وإذا كان له في الوقت عينه تلك الأهمية الكبرى والصلة العميقة بحياة الإنسان، فإنه يجدر بنا إذًا أن نلتفت إليه كنعمة من النعم العظيمة، ونحاول دراسته كآية مرشدة إلى العلّة التي أفاضت وأنعمت.

القسم الثاني:
القرآن والجمال

عناية القرآن الكريم بالجمال

للقرآن الكريم عناية خاصة بالجمال، فهو نفسه يشكّل تحفة فريدة من تحف الجمال، تعتبر هي الأسمى من حيث روعة اللغة وبراعة الأسلوب وسحر البيان، وهذا ما شهد به أهل الذوق بمن فيهم الخصوم والمعاندون، ولا يزال قول الوليد بن المغيرة مجلجلاً حتى يومنا هذا، حيث وصف القرآن الكريم بقوله: (والله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمنير أعلاه مشرق أسفله، وإنه ليعلو وما يعلى عليه[1].

ثم وعلاوة على تقديم القرآن نفسَه كنموذج فنّي لا يُضاهى، فإنه قد اهتّم بجمال الطبيعة اهتمامًا بالغًا داعيًا الإنسان إلى تصفح مشاهده والتملّي من بديع هباته.

ويمكن للمتتبّع أن يلاحظ أن القرآن الكريم قد تناول ظاهرة الجمال من جهات متعدّدة يمكن إجمالها في أربع جهات، ونحن سوف نبيّنها مستشهدين لكل جهة منها ببعض الآيات القرآنية مما نجده كافيًا في الإشارة إلى المراد، ولم نقصد إلى عرض جميع الآيات المتعلقة بالموضوع.

الجهة الأولى: وصف مشاهد الجمال

قال تعالى في كتابه العزيز: {وَآيَةٌ لَّهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ * وَجَعَلْنَا فِيهَا

1 - المحلى، السيوطي: تفسير الجلالين، دار المعرفة، بيروت، هامش ص 806.

جَنَّاتٍ مِن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنْ الْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ * سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ * وَآيَةٌ لَّهُمْ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ * لا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}[1].

لو أردنا أن نتقصّى لمسات الجمال في هذه الآيات المباركة لطال بنا المقام، وهو أمر خارج عن غرضنا هنا، إذ كل مرادنا من إيراد هذه الآيات هو التمثيل لإيحاء القرآن الكريم بالجمال عن طريق الوصف ومن دون استخدام الألفاظ الدالة عليه صراحة، ولذا نكتفي بالإشارة العابرة لبروز الجمال في ثنايا وصف القرآن الكريم لهذه المشاهد الطبيعية.

تضعنا هذه الآيات أمام لوحة فنية تجمع على رقعتها عددًا من المشاهد الطبيعية المختلفة، وتنتظمها جميعًا في إطار موحّد، تنبثق من بين جوانبه أسمى آيات الجمال. فلو تأملنا هذه اللوحة بنظرة متفحّصة لوجدناها تشتمل على عدد من العناصر الطبيعية، والتي يمتلك كلٌّ منها وجودَه الخاص وحركته المعينة، فمن تلك العناصر إحياء الأرض.. وتفجير العيون.. وخلق الأزواج.. وإظلام الليل.. وجريان الشمس.. ومنازل القمر.. إلخ..

ولكن الملاحظ هو أن هذه العناصر لم تُجمع بصورة مرتجلة وعلى أي نحو اتفق، ولمجرد أنها تشكل مظاهر طبيعية هامة، أو لأنها تعبّر عن نظام محكم ودقيق. وإنما اختيرت تلك العناصر لغاية معينة، وأُلِّفَ بينها بأسلوب محدّد لكي تفصح عما تتضمنه من دلالة، وتبوح بما

1 - سورة يس، من الآية 33 إلى 40.

تنطوي عليه من جمال.

ولذا نجد أن هذه العناصر على تعددها وتنوعها قد وزعت على مشهدين كبيرين: مشهد أرضي، وآخر سماوي. غير أن هذا التوزيع الثنائي لم يبتن على أساس المكان وحده بما هو ظرف لما يحتويه من عناصر، بل هنالك رابطة أقوى وسرٌّ أعمق كانا هما وراء ذلك التوزيع.

فالمشهد الأرضي يُبرز تلك الصيرورة العجيبة حيث تنبثق الحياة من الأشياء الميتة فتنمو وتتكاثر، ثم تتنوع بعد ذلك مظاهرها. هنا يشهد المرء تألق الجنات، وتفجر العيون، وتنوع الثمرات، وتآلف الأزواج... وهو مشهد تتناغم عناصره وتتآزر فيما بينها لتعبّر عن ظاهرة تُعدُّ من أغرب ظواهر الوجود وأشدّها عظمة وأكثرها جمالا.. إنه مشهد انبلاج الحياة وتفتح كينونتها وحركة انتشارها.

أما المشهد السماوي فإن مهمته هي الحكاية عن الوجه الآخر من وجهي الوجود، وعلى صفحته تتجلى الحقيقة المقابلة للحقيقة التي يُبرزها المشهد الأرضي، فهو يصور ظاهرة الأفول والزوال، موحيًا لنا بما تنبض به هذه الظاهرة من سحر وجمال.

هنا في هذا المشهد تحدث حركة انسلاخ النهار من الليل، فإذا العتمة سائدة والأرض يعمّها الظلام. وهنا أيضا تجري الشمس في مسارها المرسوم، لتنتهي إلى مستقر لها، وتبلغ غايتها المحتومة. كما إننا وفي المشهد نفسه نرى القمر وهو يتدرج في منازله حتى يعود رقيقا خافت النور وكأنه العرجون القديم... وهكذا تنطق عناصر المشهد السماوي كلها بمعنى واحد هو معنى الأفول والغياب.

ثم بعد ذلك يتآلف المشهدان المتقابلان ليشكّلا معا لوحة واحدة تضم على رقعتها كلا مظهري حركة الوجود: الانبثاق والزوال. حينئذ تتكامل الصورة، وتتآزر الأضداد،

فيضيء كلٌّ من الضدين رفيقه، ويشاركه فن البيان، حتى يغدو لسانهما لسانا مشتركا يفصح عن جوهر الحقيقة الواحدة، ويشير إلى ما تكتنز به من جمال.

ضدان لما استجمعا حسنا

والضد يظهر حسنه الضد

والخلاصة هي أن المرء لا يجد في هذه الآيات المباركة ذكرًا للجمال باسمه، ولكنّه يجد الجمال حاضرًا في كل جزء من أجزاء هذه اللوحة البديعة، ويشعر بالمشهد كلّه وقد تآلفت عناصره المتنوعة لتبدع وحدةً متناسقةً فوّاحةً بعبق الجمال، فهذه الآيات مع أنها لم تنصّ على الجمال بلفظه، لكنها ومن خلال وصف مشاهده تشدّ انتباهنا إليه، وتجعلنا نقيم في حضرته مباشرة ونلقاه وجهًا لوجه.

الجهة الثانية: النص على الجمال بلفظه

من الآيات التي تنصّ على الجمال بلفظه قوله تعالى: {وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ}[1].

ومنها قوله سبحانه: {وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ}[2].

يلاحظ أن هذه الآيات المباركة تنصّ على الجمال بالألفاظ الدالة على معناه كـ(الجمال) و(الزينة)، ولا تقتصر على وصف مشاهده كما هو الحال في الآيات السابقة.

الجهة الثالثة: إبراز بعض عناصر الجمال

1 - سورة النحل، الآية 5-6.

2 - سورة الحجر، الآية 16.

إضافة إلى الوصف، وإضافة إلى النصّ على الجمال بلفظه، نجد القرآن الكريم يتناول الجمال بطريقة ثالثة، وهي إبراز بعض العناصر التي يتكّون منها، ومن أمثلة ذلك الألوان وما تتمّيز به من بهاء وتنوّع.

قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَّ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ}[1].

وقال في آية أخرى: {يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}[2].

وقال أيضًا: {وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ[3].

تمثّل الألوان عنصرًا من العناصر المحسوسة للجمال، وقد اهتم القرآن الكريم بهذا العنصر اهتمامًا بالغًا، فتتبّعه في العديد من مجالاته، لافتًا إلى السحر والبهاء الذي تبديه ألوان الصخور والنباتات والدواب والأنعام والناس والشراب الذي يخرج من بطون النحل... ويُنبّه القرآن في أثناء حديثه عن عنصر اللون على سمة اختلاف الألوان وتنوّعها، ممّا يُضفي على هذا العنصر رونقًا وحيوية تُبعدانه عن ملل التكرار، وتنتشلانه من سأم الرَّتابة.

الجهة الرابعة: التنبيه على الأثر النفسي للجمال

كما يلفتنا القرآن الكريم إلى تجسّدات الجمال المختلفة في العالم الخارجي، فإنه يتوجّه بنا أيضا إلى العالم الداخلي للنّفس الإنسانية، ليرصد ما يُحدثه فيها الجمال من أثر.

1 - سورة فاطر، الآية 27-28.

2 - سورة النحل، من الآية69.

3- سورة النحل، الآية 13.

قال تعالى: {وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ[1].

وقال سبحانه: {أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُون[2].

وقال أيضًا: {وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ}[3].

إن ما يميز الجمال عن باقي المدركات الحسية هو أنه يتعدى طور انفعال الحواس، ويتجاوز عملية الادراك الذهني، ليتغلغل في أغوار النفس مثيرًا فيها شعورًا فريدًا يسر القلب ويأسر اللب، وذلك هو الشعور بالبهجة.

دليل الجمال في القرآن

لم يولِ القرآن الكريم الجمالَ كلّ تلك العناية -والتي أشرنا إلى بعض أمثلتها- لأجل إمتاع الحواسّ وإبهاج النّفس فقط، بل قصد من وراء ذلك إلى تحريك الفكر وهزّ الوجدان، ليرى الإنسانُ في الجمال آيةً تحكي عن وجود الله تعالى، وتعكس بعض الظلال لبهاء صفاته، ولذلك نجد أن القرآن الكريم ينصّ صراحة على كون الجمال يشكّل آية جليّة من آيات الله الدالّة على عظمة وجوده تعالى، والأمثلة على ذلك كثيرة، نكتفي بإيراد نماذج منها. على أنه يجدر الالتفات إلى أن ما قد يتكرّر الاستشهاد به من الآيات القرآنية فإن مردّه إلى اختلاف الغرض، حيث كان المقصود سابقًا الإشارة إلى مدى عناية القرآن بحقيقة الجمال، بينما المقصود هنا هو بيان أن القرآن قد نصّ

1 - سورة ق، الآية 7.

2 - سورة النمل، الآية 60.

3 - سورة الحج: من الآية5.

على الجمال بما هو آية ودليل يشير إلى وجود الله سبحانه، وتتجلى فيه عظمة صفاته جلّ جلاله.

قال تعالى: {أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ * وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ * وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ * وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ}[1].

يدعونا هذا النص القرآني إلى النظر في آيات الله، ومن بينها البهجة التي يثيرها جمال النبات في النفس، ثم يبين لنا أن هذه الآيات إنما تمثّل تبصرة وذكرى ليعقل الإنسان ويرجع إلى حضرة مولاه.

ومثل هذه الدعوة نصادفها في نصوص قرآنية عديدة، كما في قوله تعالى: {وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ}[2].

وكذلك قوله سبحانه: {أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ}[3].

فانظر كيف جعل سبحانه اختلاف الألوان آية لقوم يذّكرون، وكيف اتّخذ من بهجة الحدائق دليلاً على وجوده سبحانه، بل على نفي وجود شريك له في الصنع والتدبير.

ومن بين الآيات القرآنية التي تنص على الجمال كدليلٍ، نورد هذا النص الأخير:

قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَّ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ

1 - سورة ق، من الآية 6- 10.

2 - سورة النحل، الآية 13.

3 - سورة النمل، الآية 60.

وَالأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء}[1].

لقد جعل سبحانه ما يثيره اختلاف الألوان من جاذبية وسحرٍ علّة لخشية العلماء من الله جلّ جلاله، فهم عندما يلتقون بما تُظهره المخلوقات من جمال، فإن نفوسهم تستشعر عظمة من أبدعه، وتتفتح بصائرهم على بالغ حكمته، وتدرك عقولهم سعة علمه، فتطغى على كيانهم الدهشة وتسيطر على قلوبهم الخشية.

وإنه لأمر لافت للانتباه أن عبارة {كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء} لم ترد في سياق الحديث عن بعض الموضوعات الخاصة بعلوم الطبيعة، وإنما -وخلافًا للمتوقع- قد وردت هذه العبارة في سياق استعراض جانب من مشاهد جمال الكون. وكأنما ثمة تأكيد على خصوصية الجمال وأهميته، فهو كما يشكّل موضوعا مشتركا للإحساس والبهجة يلتقي عنده بنو الانسان على اختلاف مشاربهم، فإنه يشكّل في الوقت عينه موضوعا صالحا لتدقيقات العلماء وتوغلهم في استنباش أسرار الكون واستنباط حقائقة وسننه.

والنتيجة التي يوصلنا إليها القسم الثاني من البحث هي أن القرآن الكريم قد اعتنى عناية بالغة بنعمة الجمال الواسعة الانتشار في الكون، والعظيمة الأهمية للإنسان، فلفت إليها مرارًا وتكرارًا، ونصّ عليها كآية باهرة من الآيات الإلهية التي تدعو الإنسان إلى التدبّر والتعقّل.

1 - سورة فاطر، الآية 27-28.

القسم الثالث:
كيفية الاستدلال بالجمال

أسس دليل الجمال

إن المنهج القرآني العام في تناول الأدلّة والآيات يعمَدُ إلى طرح أصل الدليل والإشارة إلى أهمّ معالمه، ثم يترك للإنسان نفسه عملية التتبّع والتدقيق، وترتيب المقدّمات، واستخراج النتائج.

فالقرآن الكريم يدعو وينبّه، ويُوكل الأمر بعدها للإنسان لكي يتأمّل ويتدبّر، مستخدمًا ما وهبه إياه المولى من قدرة على الفهم والإبداع ليبحث ويحقّق، ويستنتج ويستنبط.

وقد مرّ بنا سابقًا مدى العناية التي أولاها القرآن الكريم للجمال، وكيف نبّه عليه كنعمةٍ عظيمةٍ من نِعَم المولى سبحانه، والتي تنهض كآية جليّة من آيات الله في الكون، تدلّ على وجوده وتعكس بهاء صفاته.

وبقي علينا الآن أن ندرس أهمّ مقدمات هذا الدليل، والأسسَ التي يبتني عليها، والطريقةَ التي من خلالها يمكن تحصيل النتيجة المطلوبة.

ويبدو أنه هنالك أربع نقاط مهمة تشكّل مقدّمات أساسية في دراسة دليل الجمال، وهذا ما دفعنا إلى بحث كل واحدة منها بصورة مستقلة وتحت عنوان خاص.

المقدمة الأولى: وفرة الجمال وسعة انتشاره

أشرنا فيما مضى إلى ما يتمتع به الجمال من وفرة وسَعة انتشار، وذلك تحت عنوان (سراية الجمال في الكون)، ولا نريد هنا تكرار ما سبق بيانه، ولكنّا ومن باب التأكيد فقط

نذكر بعض أقوال العلماء والمفكرين في الموضوع.

يقول ا. كريسي موريسون في كتابه "العلم يدعو إلى الإيمان":

(والجمال يبدو ملازمًا للطبيعة، وجمال السّحب وقوس قزح، والسماء الزرقاء، والبهجة الرائعة التي تملأ نفس الناظر إلى النجوم، وإلى القمر في طلوعه، والشمس في غروبها، وإلى روعة الظهر الفائقة، كلّ ذلك يهزّ مشاعر الإنسان ويسحره، وتحت الميكروسكوب تجد أصغر حيوان وأدقّ زهرة، تزيّنها خطوطٌ من الجمال مُحكمة الصنع، والخطوط البلورية التي للعناصر والمركبات، من نُدفة الثلج إلى الأشكال الأصغر منها، إلى ما لا نهاية، هي صادقة لدرجة مدهشة، حتى إن الفنّان ليس بوسعه إلا أن يقلّدها أو يجمعها معًا...)[1].

ويقول "ديفيد بوم": (كل ما يمكن العثور عليه في الطبيعة تقريبًا، يتبدّى عن شيء من الجمال، سواء في الإدراك الفوري له وفي التحليل الفكري)[2].

ويقول "ألكسندر أليوت": (يبدو أن الجمال وجه من أوجه كل شيء)[3].

وأقوالهم في ذلك كثيرة متنوّعة يضيق المجال عن الاستفاضة في نقلها.

المقدّمة الثانية: الجمال حقيقة أصيلة

(قضى برنارد برنسون عصر أحد الأيام وهو يتأمّل رسومًا صينية لمشاهدَ شتوية، وعندما نهض في النهاية ليذهب، رأى نافذة المتحف وقد امتلأت بغَسَق ثلجي، فهتف

1 - ا. كريسي موريسون: العلم يدعو للإيمان، تعريب الأستاذ محمود صالح الفلكي، مكتبة النهضة المصرية – القاهرة، ص 134-135.

2 - نقلاً عن كتاب: العلم في منظوره الجديد، مرجع سابق، ص73.

3 - آفاق الفن، مرجع سابق، ص159.

-مشيرًا إلى النافذة-: تلك أفضلها جميعًا)[1].

لقد أحسّ برنارد أن مشهد الثلج الذي تَعرِضه الطبيعة، والذي تُشكّل النافذة إطارًا له، هو أجمل من جميع المشاهد الشتوية التي تعرضها لوحات المتحف.

تمثّل هذه المفاضلة بين الجمال الطبيعي والجمال الفنّي واحدة من قضايا عديدة تُطرح على بساط البحث حول طبيعة كلٍّ من هذين الجمالين، وحول الصّلة التي تربط بينهما.

ولكن الذي يهمّنا الآن من بين تلك القضايا هو السؤال عمّا إذا كان الجمال الطبيعي يعتبر أمرًا مرادًا ومقصودًا بالذات، أو أنه مجرّد أمر ثانوي وعارض؟ ويختصّ هذا السؤال بالجمال الطبيعي فقط دون الجمال الفنّي، إذ لا ريب في أن الجمال الذي تبديه -مثلا- لوحة لا يظهر فيها بمحض الصدفة وعن طريق الاتفاق، بل من المسلم به أن الفنّان يسعى إلى خلقه، ويقصد إلى إبداعه، وهذا لا يمنع من وجود أغراض أخرى تحملها اللوحة في داخلها، بل لعلها تكون من العناصر الضرورية في بنائها وسموّ قيمتها، غير أن الفنّان إذا أراد للوحته أن تحمل مغزى من المغازي أو تنطق بمعنى من المعاني، فإنه يوحي به إيحاءً من خلال ما يُشيعه في أرجاء لوحته من الجمال، فالجمال في مثل هذا المورد هو اللغة التي يستخدمها الفنان في أداء رسالته، ولذلك يمكن القول وبكل اطمئنان: إن الجمال الذي يظهر في الأعمال الفنّية هو أمر مقصود للفنان، وليس مجرد شيء ثانوي أو عارض.

هذا فيما يتعلّق بالجمال الفني. فماذا عن الجمال الطبيعي؟

يبدو أن مسألة وجود قصد في الجمال الطبيعي لم تَسْلَم

1 - نفسه، ص 192.

من المناقشة والأخذ والردّ، وقد ظهر في الإجابة على هذه المسألة اتجاهان، يرى أحدهما أن الجمال لم يكن أمرًا مقصودًا في عالم الطبيعة، بينما يرى الآخر عكس ما يراه الأول.

ومن عبّر عن الاتجاه الأول الفيلسوف الفرنسي "جان بول سارتر" في كتابه (ما الأدب؟)، حيث ذكر فيه أنه يمكن إرجاع وجود الجمال في الطبيعة[1] إلى الضرورة التي تفرضها طبيعة قوانين المادة، مما ينفي أن يكون هنالك أيّة إرادة أو قصد وراء ما تزخر به الطبيعة من جمال، وقد أوضح ذلك بقوله: (يمكن شرح العشب الأخضر على حسب قوانين علم الحياة وبمقتضى خصائص ثابتة وبحكم ما تُحتّمه العوامل الجغرافية، على حين اللون الأزرق في الماء سببه عمق النهر أو طبيعة المجرى أو سرعة التيار...)[2].

وهذا يعني أن زرقة الماء -مثلاً- لم تكن مقصودة بحيث تضفي على الماء جمالاً، وإنما هي قوانين الطبيعة تؤدّي وظائفها، فيَظهرُ نتيجةً لذلك الجمالُ وبصورة عرضية غير مقصودة ولا مرادة، فليس الجمال سوى مظهر ثانوي تفرضه قوانين المادّة وتحتّمه ضروراتها.

هذه هي خلاصة الاتجاه الأول.

أما الاتجاه الثاني فإنه يرى أن الضرورة لا تكفي وحدها لتفسير ظهور الجمال، بل الجمال وجد نتيجة إرادة ووعي،

1 - يقع الحديث حول الجمال الطبيعي في مقامين إذ هو قد يتناول ظاهرة مفردة كجمال زهرةٍ أو جمال خضرةِ العشب أو زرقة الماء، وقد يتناول مشهدًا مركبًا كجمال منظر مؤلّف من البحر والسماء والسهل والشجر، فيحاول تعليل ما في هذا المنظر من تناسب، ولكننا وروماً للاختصار قَصَرنا الكلام على المقام الأول فقط، إذ يكفي أن ندلّل على أن ما يوجد في الظاهرة المفردة من جمالٍ هو أمر مراد ومقصود، ليثبت بذلك وجود القصد في ظهور الجمال في الطبيعة.

2 - جان بول سارتر: ما الأدب، تعريب د. محمد غنيمي هلال، دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ص58.

مما يجعله أمرًا مقصودًا بالذات، وليس مجرّد شيء ثانوي وعارض كما يراه أصحاب الاتجاه الأول.

ويمكن الاستدلال على ذلك بما أورده مؤلّفا كتاب "العلم في منظوره الجديد" حيث قالا:

(لنأخذ قياسًا تمثيليًا لذلك. فقد يستطيع أحدنا أن يبني مصنع سيارات مجهّزًا كليًا بمعدّات ميكانيكية لإنتاج عربات جميلة، بل هو قد يستطيع أن يركِّب في الآلية الجمال الناتج عن التصميم واللون، ولكن الجمال في السيارة لا يُصبح بذلك ضرورة مطلقة، إذ تظلُّ العربات البشعة قادرةً على نقل الركّاب بفعالية. ومن الممكن اختراع آلاتٍ لإنتاج عربات كهذه بالطريقة نفسها. ليست هنالك أي ضرورة مطلقة تَفرض في المقام الأول أن تشتمل القوانين الفيزيائية للطبيعة على البساطة والتناسق. ولنا أن نتصوّر كونًا آخر ذا قوانين طبيعية غير متماثلة، ومعقّدة لغير ضرورة، يُنتج نُدَفًا ثلجية بشعة بضرورة ميكانيكية. الضرورة إذن لا تقدّم تفسيرًا نهائيًا للجمال الذي نجده في الجوامد)[1].

وهذا يعني: أن جمال كائنات الطبيعة، مع أنه قد ينبع من صميم القوانين الفيزيائية والكيمائية، ولكن ما يجب ملاحظته هو أن هذه القوانين قد انتُخبت بطريقة خاصة بحيث تُنتج الجمال إلى جانب الوظائف الأخرى المرتبطة بالأشياء، وذلك لأنه لم يكن من المستحيل أن توجد هذه القوانين بصورة أخرى مختلفة، بحيث تعطي الأشياء جميع خصائصها المطلوبة، ولكن دون أن تمنحها الجمال. وهذا شديد الشّبة بالمصنوعات البشرية، إذ من الممكن تصميم مصنع للسيارات -والمصنع هنا هو بمثابة قوانين الطبيعة- يُنتج سيارات متينة وسريعة وقادرة على نقل الركّاب بأفضل صورة، ولكنها تكون مع ذلك كلّه سيارات

1 - العلم في منظوره الجديد، مرجع سابق، ص71-72.

ذات مظهر بشع. وبالمقابل فإنه يمكن تصميم المصنع بطريقة أخرى بديلة بحيث يُنتج جميع المواصفات السابقة إضافةً إلى الجمال.

وعليه فإننا حين نجد أن السيارات التي تخرج من المصنع تمتلك جميع المواصفات المرتبطة بما يناط بها من وظائف عملية، وهي علاوة على ذلك سيارات تتميّز بخاصية الجمال، فإننا ندرك حينئذٍ أن هذا المصنع قد رُوعي في أساس تصميمه أن يُنتج الجمال.

والأمر عينه ينطبق على قوانين الطبيعة، فمما لا شك فيه أن جمال الكائنات إنما يَصدر عن هذه القوانين، ولكن المهمّ في المسألة هو أن هذه القوانين قد صُمّمت بالصورة التي تَهَبُ الكائنات كل ما يُناط بها من وظائف ومستلزمات، وتَهبها في الوقت ذاته سِمَة الجمال، وإلا فإنه لم يكن من المحال وجود قوانين تَصدر عنها جميع ما تحتاجه الكائنات لتأدية وظائفها الخاصّة، ولكن دون أن يصدر عنها الجمال.

فالجمال -إذًا- لا تُحتّمه الوظائف ولا تَفرضه الضرورات، بل هو أمر زائد على الضرورة ومقصود بالذات.

هذا ويمكن لأصحاب الاتجاه الثاني أن يعرضوا نمطًا آخر من الأمثلة يتجلّى فيها القصد الجمالي بصورة أشد وضوحًا من نمط الأمثلة البسيطة والمحدودة التي طرحها (سارتر)، وذلك من قبيل التنويعِ النغمي الذي يتميز به صوت الانسان، والزخرفةِ التي تُزيّن ريش الطيور، وكذلك الأشكال والتخطيطات التي تُظهرها أوراق الأشجار، وأيضًا الألوان الزاهية والمتنوعة التي تتميّز بها الزهور، أو الرسومات والأصباغ التي تزدهي بها الفراشات وما يشاكلها من الحشرات، وإلى آخر القائمة مما يضيق المجال عن وصفه وتعدَاده.. ولنذكر بشيءٍ من التفصيل

نموذجين فقط من نماذج هذا النمط، نُظهر بواسطتهما شأن النماذج الأخرى مما تحتويه هذه القائمة، وليكن موضوع النموذج الأول هو (صوت الإنسان).

يشير الفيلسوف الألماني هيجل إلى تميُّز الحنجرة البشرية بالقول:

(لكن الآلة الأكثر حرية والأدنى إلى الكمال بصوتيتها هي الحنجرة البشرية التي تجمع بين الآلات الوترية والآلات النفخية، على اعتبار أنها في جزء منها عمود هواء اهتزازي، وتعمل في جزء آخر منها -بفضل العضلات- كوتر مشدود. وكما أن لون الجلد البشري يمثل (...) تركيبا فكرويا لجميع الألوان الأخرى، وبالتالي اللون الأدنى إلى الكمال، كذلك يشكل الصوت البشري الكلية الفكروية لصوتيات الآلات الخصوصية. وهو يتسم -بحكم ذلك- بنغمية مثلى تتكيف مع جميع الآلات، وتؤلف مع كل آلة منها طاقما مدهش الجمال)[1].

ويبين مؤلفَا كتاب "العلم في منظوره الجديد" الأمر نفسه بالقول:

(فصوت الإنسان أكثر براعة وتعبيرًا من أيّ آلة موسيقية، والضرورة لا تستلزم أن يكون للإنسان صوت قادر على إخراج نَغَمات حلوة، إذ يكفي أن يكون له صوت رتيب وممل، أو صوت خشن، للاستغاثة أو للتعبير عن حاجات بدنه، و"داروين" نفسه أقرّ بأن الضرورة لا تستطيع أن تفسّر ما حُبِيَ به الإنسان من مواهب موسيقية فطرية، فقد قال: "وحيث إن الاستمتاع بالأنغام الموسيقية والقدرة على إطلاقها ليسا من الملكات التي تعود على الإنسان بأدنى نفع في عاداته اليومية الحياتية، فلا بد من تصنيفها في

1 - هيجل: فن الموسيقى، تعريب جورج طرابيشي، دار الطليعة – بيروت، ط1، 1980، ص51-52.

عداد أكثر الملكات التي حُبِيَ بها الإنسان غموضًا")[1].

فالصوت البشري يمثّل آية باهرة من آيات الجمال في الكون، وهو يبرهن بوضوح على أن الضرورة لا يمكنها أن تفسّر وجود الجمال.

أما النموذج الثاني، فنستمده من عالم الطيور، حيث يصادف المرء في هذا العالم من جمال الشكل ومن روائع الزخرفة والتلوين ما يبهر الحسّ ويسيطر على أعماق النفس.

ولنذكر من ذلك نبذة يسيرة مستقاة من بعض فيوضات أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السّلام في خطبته التي يذكر فيها عجيب خلقة الطاووس.

يشير عليه السّلام في هذه الخطبة إلى ثلاثة أصناف من صنوف التشكيل اللوني الذي تبديه الطيور، فمنها صنف أحادي اللون، وآخر يتميّز بلونين، وثالث موشّى بألوان عديدة متنوعة.

أما الصنفان الأولان، فيبيّنهما عليه السّلام بقوله: (ونسقها -أي الطيور- على اختلافها في الأصابيغ بلطيف قدرته، ودقيق صنعته، فمنها مغموس في قالب لون لا يشوبه غير لون ما غُمس فيه، ومنها مغموس في لونِ صبغٍ قد طوّق بخلاف ما صُبغ به)[2].

يصوّر عليه السّلام الصنف الأول وكأنه غُمس في قالب يحتوي على لون واحد، ولذلك جاء هذا الطائر أحادي اللون لم يصطبغ بغيره من الألوان، بينما يصور الصنف الثاني بأنه شبيه بالأول لجهة الغمس في قالب الصبغ

1 - نفسه ص72.

2 - سنورد مايتعلق بموضوعنا من الخطبة في ملحق يتلو البحث وذلك لنيسّر للقارئ الاطلاع عليها، والخطبة جديرة بدارسات مفصّلة ومن نواحٍ وجهات عديدة، وليس فقط من الجهة المتعلقة بالجمال.

الواحد، ولكنه يمتاز عنه من جهة أخرى، إذ أنه مطوّق بلون يخالف سائر بدنه.

أما الصنف الثالث فأجلى مصاديقه الطاووس، وأمير المؤمنين عليه السّلام يصف مختلف معالم تشكيله الجمالي، كحسن التكوين، وروعة الزخرفة، وبهاء الألوان، وفتنة الحركة... غير أننا ورومًا للاختصار سنكتفي ببعض الإشارات السريعة مما يتعلّق بألوان الطاووس فقط.

يصف عليه السّلام التنوّع العجيب لألوان الطاووس بقوله: (وقلّ صبغٌ إلا وقد أخذ منه بقسط، وعلاه بكثرة صقاله وبريقه وبصيص ديباجه ورونقه)، فالطاووس أشبه ما يكون بمعرض فني جُمعت فيه معظم ألوان الطبيعة، أو كأنه دائرة للمعارف دوّنت بالألوان لا بالكلمات. بل الأمر أبعد من ذلك وأعجب -كما يبيّن الإمام عليه السّلام- حيث إن الطاووس يعلو بأصباغه على ما في الطبيعة من أصباغ، ويزيد عليها بكثرة صقاله وبريقه وبصيص ديباجه ورونقه.

وإذا ما أراد المرء أن يشاهد كافّة أزهار الربيع مُنتَخبة منسّقة في روضة واحدة، فلينظر إلى الطاووس، ذلك الكائن الذي يصفه أمير المؤمنين عليه السّلام بالقول: (إن شبّهته بما أنبتت الأرض، قُلتَ جَنيٌّ[1] جُني من زهرةِ كل ربيع).

ثم إنك لو تأملت حتى الشعرة الواحدة من شعراته، فلسوف تشهد فيها جَنّة من الجنان مشغولة بأزهى الألوان، وفي ذلك يقول عليه السّلام: (وإذا تصفحت شعرة من شعرات قصبه[2] أرتك حمرة وردية، وتارة خضرة

1 - جنيٌّ: مجتنى.

2 - القصب: عمود الريش.

زبرجدية[1]، وأحيانا صفرة عسجدية)[2].

وأخيرا اقرأ كلامه عليه السّلام وهو يشبّه الطاووس بأزهار الربيع فيقول: (فهو كالأزاهير المبثوثة لم تربها أمطار ربيع ولا شموس قيظ). وتأمل مليّا كيف فاق الطاووس بجماله جمالَ أزهار الربيع، وذلك لأن أزهار الربيع محتاجة في نموها وتفتحها إلى الشمس والمطر، وأما أزهار الطاووس فهي مستغنية عنهما. فما أعجب هذا الجمال الذي خرج عن مألوف الطبيعة، وقفز فوق المعروف من شروطها.

تلك كانت لمحة عابرة وعجولة من لمحات الجمال المبثوث في عالم الطيور، وهي مع ذلك تستوقف المتأمّل ليتساءل عن سرّ هذا الفيض اللامتناهي من الجمال الذي يزين أبدان الطيور.

فهل السرّ يكمن في الضرورة ؟

فلنسأل إذًا أيّة ضرورة هي تلك، وما حقيقتها ؟

إن غاية ما يقال في الإجابة: إنها الضرورة التي تستوجبها عوامل التكيّف مع البيئة. أو يقال إنها ضرورة تستدعيها متطلبات الجاذبية الجنسية، وتستلزمها مقتضيات التزاوج.

أما القول الأول فيمكننا أن نتساءل حوله: ألسنا نجد من الأطيار ما هو متوافق مع بيئته، مع أنه أقل حظًا من غيره في ميزان الجمال ؟ بل ألسنا نجد حتى في البيئة الواحدة تفاوتًا هائلاً بين الطيور من حيث الزخرفة والتلوين، وكلها متوافقة مع البيئة سواء منها ذو اللون الواحد وذو اللونين، وكذلك ذو الألوان المتعددة ؟

فأيّ توافق هو الذي يفرض على طائر كالطاووس بأن يتصف بمثل ما ألمحنا إليه من الصفات؟! وخصوصا بعد

1 - زبرجدية: زمردية.

2 - عسجدية: ذهبية.

الالتفات إلى الجانب الذي تتميز به صفات الطاووس عما تَحتّفُ به البيئة من صفات، مما يسمو بجمال الطاووس على جمال البيئة، ويجعله متجاوزًا لواقعها، وذلك من قبيل ما مرّ بنا من قول أمير المؤمنين عليه السّلام: (وعلاه بكثرة صقاله وبريقه وبصيص ديباجه ورونقه)، وكذلك قوله عليه السّلام: (فهو كالأزاهير المبثوثة لم تربها أمطار ربيع ولا شموس قيظ).

ولنا بعد ذلك أن نتساءل: أيّ تاريخ اجتازه صنف هذا الطائر حتى تسنى له أن يصطبغ بكل ذلك المقدار العجيب من التوشيح والترصيع والزخرفة والتلوين؟!

وعليه يتبيّن أن إطلاق القول بالتوافق مع البيئة لا ينهض على علاّته كتعليل واضح للقضية.

وأما فيما يتعلق بالقول الثاني، فإننا لا ننكر توسّل بعض الأحياء بالجمال لاجتذاب الشريك والتأثير عليه، ومن أمثلة ذلك الطاووس، فإنه حين يقبل على الأنثى يرفع ذيله ناشرا إياه، وفي ذلك يقول أمير المؤمنين عليه السّلام: (إذا درج إلى الأنثى نشره من طيه، وسما به مطلا على رأسه).

ولكن يجب أن لا نتسرع في الاستنتاج ذاهبين إلى أن جمال الطاووس ليس سوى أثر اقتضته الجاذبية الجنسية، وفرضته ضرورة التزاوج !

بل إن القليل من التدبر يُفضي بنا إلى العكس تمامًا، ويمدّنا بأحد الأدلة على أصالة الجمال، وذلك لأنه إذا افترضنا أن ما يجذب أنثى الطاووس إلى التزاوج هو الجمال، أفلا يعني هذا أن ما يجذبها بالدرجة الأولى هو الجمال ؟ مما يعني أن للجمال أصالته، وأنه ذو قيمة خاصة لدرجة أن الطاووس يتوسّل به حتى إلى الضروريات.

يتبين مما تقدم أن الاتجاه الثاني هو الأولى بالقبول،

ولذلك يمكن القول بأن وجود الجمال في الكون لا يمكن تفسيره بأنه مجرد أمر عارض وغير مقصود بالذات، ولا بأنه أمر قسري تُحتّمه الضرورة الطبيعة تلقائيًا، إذ من الممكن وكما رأينا أن نتصوّر بدائل لهذه القوانين لا تؤدّي بالضرورة إلى ظهور الجمال، كما أن طبيعة الأشياء وما يُناط بها من وظائف، لا تستدعي تلك الزيادة الفائضة على الضرورة، وهو ما مثّلنا له بنموذجين، أولهما صوت الإنسان وما فيه من روعة وتنويع نَغَمي كبير، لا تستلزمه الوظائف الحياتية ولا تفرضه الشؤون المعيشية، وثانيهما الزخرفة والألوان التي تزين ريش الطيور، مما يصعب ردّه إلى مقتضيات البيئة أومستلزمات الضرورة. وهذا ما يؤدّي بنا إلى القول بأن حقيقة الجمال هي حقيقة زائدة على الضرورة، ومقصودة بالذات، أي أنها حقيقة أصيلة من حقائق هذا الوجود.

المقدمة الثالثة: البُعد الجمالي في حواسّ الإنسان

للحواسّ وظائفها العملية التي تُعِين الإنسان على تدبير شؤون حياته وتمكّنه من البقاء، فهو بواسطتها يستطيع الحصول على مقوّمات وجوده من ماء وغذاء ومسكن وملبس، كما يستطيع بواسطتها أيضًا تمييز الأخطار وتجنّبها...

ولكنّ الأمر الجدير بالملاحظة هو أن عمل الحواس لا ينتهي عند حدود هذه الوظائف، بل إن طبيعة تركيبها قد زوّدتها بِقُدُرات أخرى جعلت منها أجهزة مُهيأة للإحساس بالجمال.

فالأُذن مثلاً لا تقتصر على كونها وسيلة لإدراك[1] الأصوات بما لهذه الأصوات من دلائل عملية ومهام وظيفية فقط، بل هي تقوم فوق ذلك بتمييز فروقاتٍ صوتية دقيقة

1 - الحواس قنوات للإدراك، ونسبة الإدراك إليها ضرب من المجاز العقلي

تُمكّن النفس من الإحساس بما في الأصوات من عذوبةٍ وروعةٍ، وهي أمور لا صلة لها بضرورات حياة الإنسان العملية ولا بما تفرضه عليه شروط الوجود وأسس البقاء.

يقول "ا.كريسي موريسن":

(إن جزءًا من أُذن الإنسان هو سلسلة من نحو أربعة آلاف حَنية "قوس" دقيقة معقّدة، متدرّجة بنظام بالغ في الحجم والشكل. ويمكن القول بأن هذه الحنيات تشبه آلة موسيقية، ويبدو أنها مُعدّة بحيث تلتقط، وتنقل إلى المُخّ، بشكل ما، كلّ وقع صوت أو ضجّة، من قصف الرعد إلى حَفيف الشجر، فضلاً عن المزيج الرائع من أنغام كل أداة موسيقية في الأوركسترا ووحدتها المنسجمة. لو كان المراد عند تكوين الأذن أن تُحْسِنَ خلاياها الأداء كي يعيش الإنسان، فلماذا (...)[1] يمتدّ مداها حتى تصل إلى إرهاف السمع؟ لعل "القوّة" التي وراء نشاط هذه الخلايا قد توقّعت حاجة الإنسان في المستقبل إلى الاستمتاع[2] الذهني، أم أن المصادفة قد شاءت تكوين الأذن خيرًا من المقصود؟)[3].

وما يصدق على الأذن يصدق على العين أيضًا، مما يدلّ على أن حواسّ الإنسان قد أُعدّت لتلقّي الجمال إضافة إلى ما لها من وظائف عملية.

المقدمة الرابعة: ابتهاج النفس بالجمال

لقد حُبِيَت جملةٌ من الكائنات الحيّة بموهبة عظيمة تتمثّل في قدرتها على الوعي والإدراك، وتتجلّى هذه القدرة بأسمى مراتبها في الإنسان. بَيْدَ أن بعض هذه الكائنات تمتاز فوق ذلك بخاصيّة أخرى هي خاصّية الشعور

1 - جاء النص كالتالي: "فلماذا لم يمتد مداها حتى تصل..."، ويبدو أن كلمة "لم" قد وردت خطأ، ولذلك حذفناها من النص.

2 - في النص ورد كلمة (الاستماع) بدل الاستمتاع، ولعله خطأ مطبعي.

3- العلم يدعو للإيمان، مرجع سابق، ص119.

بالبهجة والانفعال بالجمال، وهي خاصيّة يرى البعض أنها تخصّ الإنسان وحده، بينما يرى آخرون أنها مشتركة بينه وبين بعض أصناف الحيوان.

يقول مؤلفا كتاب "الحواس في الإنسان والحيوان": (أليست القدرة على الدهشة والإعجاب من الخصائص القليلة المميزة فعلاً للإنسان عن غيره من الكائنات الحيّة؟!)[1].

ويقولان أيضًا: (ولعل معظم الأصوات في الطبيعة تتولّد نتيجة نشاط من نوع ما. ومن المشكوك فيه أن سماعها يلذّ لأي مخلوق عدا الإنسان)[2].

بينما يذهب ول ديورانت في كتابه مباهج الفلسفة إلى أن الحيوان أيضًا يمتلك حاسة الجمال، حيث يقول: (فلنذهب إلى الحيوان ولنحاول أن نتتبّع حاسّة الجمال إلى منبعها. إننا نخطئ حين نفترض أن الإنسان وحده هو الموهوب بالشعور الجمالي)[3].

وهو ينقل عن "إليس" قوله: (لقد دلّت التجارب التي أجريت على عدد متنوّع من الحيوانات في حدائق الحيوان عند سماع توقيع آلات موسيقية أن جميعها باستثناء بعض سباع البحر كانت تؤذيها النغمة الناشزة... وتهيّج نمر كان يرتاح إلى صوت الكمان عندما سمع المزمار المسمّى piccolo، ومعظم أنواع الحيوان تؤثِرُ سماع الكمان والناي)[4].

ويرى كذلك أنه ليست آذان الحيوان وحدها هي التي تستشعر الجمال بل عيونها أيضًا، فيقول في ذلك:

1 - لورنس ملني، ومارجري ملني: الحواس في الإنسان والحيوان، تعريب د. ثابت قصبجي، المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر - بيروت، بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر - نيويورك، 1966م، ص10.

2 - نفسه ص61.

3 - ول ديورانت، مباهج الفلسفة، ص286.

4 - نفسه، ص 286

(وليست عين الحيوان عديمة الحسّ بالجمال. فبعض الطيور فيما يروي داروين تزيّن أعشاشها بأوراق الشجر والقواقع الملوّنة البديعة، وبالحجارة والريش وشرائط النسيج مما يخلّفه الناس في بيوتهم. والطير المسمى "بوير" bower-bird، يبني عشًّا خاصًا لأنثاه يغطيه بفروع الشجر، ويفرشه بالحشائش، ثم يحمل حصى أبيض اللون من أقرب جدول ويرتبها بهيئة فنية على جانبيه، ويزيّن جدران العش بالريش الملوّن، والتوت الأحمر، وأيّ شيء بديع يجده. وأخيرًا يجلّل طريق الدخول والخروج بالمحار والحجارة اللامعة. فهذا هو القصر الذي يبنيه طائر البوير لأنثاه. وفي ذلك يقول بولش: يكفي أن تلقي نظرة واحدة على عشّ الزوجية هذا لتقنع بأن ثمّة لذة فنية مباشرة "بالجميل" توجد في ذهن هذا الطائر الصغير)[1].

ومن الأمثلة التي يسوقها ديورانت في هذا المجال والتي قد تشير إلى الإدراك الجمالي لدى الحيوان ما تقوم به بعض الطيور، فيقول: (والعقعق والغراب وغيرهما من الطير تسرق الأشياء اللامعة كالفضة والحلي وتخفيها. فمن يدري أي دافع يسوقها: أهو الزهوّ، أم الاستطلاع، أم الجشع، أم الذوق الفني؟)[2].

وسواء أكان الإنسان وحده يمتلك القدرة على إدراك الجمال والتمتّع بعطاياه، أو كان يشاركه في ذلك بعض أنواع الحيوان[3]، فالمهمّ في المسألة هو وجود كائنات

1 - نفسه، ص 287.

2 - نفسه، ص287.

3 - قد يمكننا التوفيق بين الاتجاهين المذكورين بأن نقول: إن الحيوان قد يشارك الإنسان في إحساسه بالجمال والالتذاذ به، ولكنّه لا يشاركه الشعورَ بالدهشة أمام الجمال، وبما يرافق هذه الدهشة من يقظة وجدانية وتسامٍ معنوي. فأصل الإحساس بالجمال والالتذاذ به أمر مشترك بينهما، وأما الشعور بالدهشة فهو خاصة إنسانية، يمتلكها الإنسان دون غيره من أنواع الحيوان.

-وعلى رأسها الإنسان- تمتلك خاصيّة الشعور بالبهجة والإعجاب، علاوة على امتلاكها القدرة على الإدراك، وهنا يكمن السرّ في تميّز الجمال وفي تعلّق الإنسان به وتقديره إياه. فلو كانت النفس تدرك فقط، من دون أن يحرّك ما تُدركه مكامنَها، ومن دون أن يثير فيها تلك المشاعر الخاصة من الفتنة والابتهاج، لَفَقَد الجمال قيمته، ولَخَسِرَ كل معناه، وبذلك يظهر أن كل ما يزخر به الكون من سحر وبهاء، ما كان ليتخّذ أي معنى أو يكتسب أيّ قيمة، لو لم تكن النفس مُهيأة للشعور بالبهجة ومتّسمة بالقدرة على الاندهاش.

كيفية الاستدلال بالجمال

تُشكّل المقدمات الأربع المذكورة العناصر الرئيسية لدليل الجمال، ولا بدّ لكي يكتمل البحث من القيام بعملية تركيب تؤلّف بين هذه المقدمات، وتستخلص ما يترتب عليها من نتائج:

تناولت المقدمة الأولى قضية وفرة الجمال وسَعة انتشاره في الكون. وفائدة هذه المقدمة هي إبطال دور الصدفة وإلغاء عامل الاتفاق في ظهور الجمال ووفرة وجوده. وبيان ذلك هو أنه لمّا كان الجمال على هذه الدرجة الكبيرة من السعة والانتشار، فمن غير المحتمل أن يُفسَّر ذلك على أساس معطيات الصدفة وعامل الاتفاق، إذ ليس من شأن الصدفة أن تتصف بالعموم والاطّراد، بل كلما اتصفت ظاهرة من الظواهر بالعموم والاطّراد، فإن ذلك سيشكل دليلاً على استبعاد الصدفة وخفض درجة احتمالها، أو على إبطالها وإلغاء دورها[1].

وهذا معناه بالنسبة لبحثنا هو أن ما يتّسم به الجمال من

1 - الترديد بين إلغاء الصدفة وبين استبعادها وانخفاض درجة احتمالها، يرجع إلى الاختلاف بين المناهج المتبناة لدى الفلاسفة والعلماء.

وفـرة وانـتشار، لا يـمكن إرجـاعـه إلـى عـامـل الـصدفـة والاتفاق، بل لا بد من القول أنّ هنالك قصدًا وتدبيرًا هما المسؤولان عن ظهور الجمال ووفرة وجوده في الكون.

ولكن لقائل أن يقول: إن إبطال دور الصدفة في ظهور الجمال لا يفضي حتمًا إلى افتراض عقل مدبّر هو الذي عمد إلى إيجاده، إذ هنالك بديل آخر يمكن أن يكون هو السبب في وجود الجمال، وهذا البديل هو عامل الضرورة، بمعنى أن الجمال لا يشكّل حقيقة أصيلة من حقائق الكون ليكون له علة خاصة تقف وراء وجوده، وإنما هو أمر ثانوي وعرضي أنتجته القوانين الطبيعية وبصورة تلقائيةٍ وعفوية، فزرقة الماء مثلا لم تظهر نتيجةً لوجود قصد ووعي أرادا للماء أن يتّصف بصفة الجمال، بل هنالك قوانين تحكم الأجسام وطريقة امتصاصها للضوء، وتحكم الضوء وطرق انعكاسه، وكنتيجة لهذه القوانين يظهر اللون الأزرق في الماء بالضرورة.

فإذا كان الأمر كذلك، فإنّه يغدو من العبث الحديثُ عن وجود قصد يقف وراء ظهور الجمال في الكون، إذ حتى مع التسليم ببطلان دور "الصدفة"، فإنه يبقى في البين دور عامل "الضرورة"، والذي يمكن على أساسه تعليل وجود الجمال.

هنا تَبرزُ وظيفة المقدّمة الثانية، وهي المقدمة التي أوردناها تحت عنوان "الجمال حقيقة أصيلة"، والتي بيّنّا فيها أن الجمال ليس حقيقة ثانوية وعارضة قد فرضتها طبيعة الحقائق الأخرى، ليكون هو من ملحقاتها وتوابعها، بل الجمال عنصر أصيل ومقصود بالذات وزائد على الضرورة، أُريدَ له أن يظهر على صفحة الكون كحقيقة خاصة إلى جانب الحقائق الكونية الأخرى.

وعليه، فإذا بطل دور الصدفة بناء على المقدمة الأولى،

وبطل أيضًا عامل الضرورة، بناء على المقدمة الثانية. فإنه يتحتّم عندها أن تكون العلة في إبداع الجمال هي عقل واعٍ وإرادة هادفة.

وبذلك يتبيّن أنّ المقدمتين الأولى والثانية قد أنيط بهما معالجة موضوع الجمال من ناحية أصل وجوده، أي بمعنى وجود خاصيّة في الكون مقصودة بالذات وزائدة على الضرورة، لا تحكمها الشروط الأولية لوجود الكائنات ولا العوامل الخاصّة المتعلقة بتأدية وظائفها.

غير أن مجرد وجود هذه الخاصّية لا يكفي وحده لتفسير قضية الجمال، وذلك لأن قضية الجمال لا تنحصر في ظهور ذلك العنصر الزائد على الضرورة، بل لا بد علاوة على ذلك من وجود أحاسيسَ ومشاعرَ ترتبط بهذا العنصر الزائد على الضرورة حتى يكتمل للجمال معناه، فالجمال ليس هو مجرد سمة خارجية مستقلة عن الشعور، كما أنه ليس محضَ شعور منقطع عن العالم الخارجي، بل هو يمثّل سمة من سمات الواقع الخارجي تستثير أحاسيسَ ومشاعرَ من نوع خاص. ولذلك ولكي تكتمل الصورة كان لا بد من المقدمتين الثالثة والرابعة، واللتين تتجهان إلى معالجة القضية من ناحية الإدراك الإنساني، ومن الزاوية المتعلقة بالإحساس والشعور.

وعليه جاءت المقدمة الثالثة: "البعد الجمالي في حواس الإنسان" لتبيّن أن هذه الحواس قد رُكّبت بصورة تمكّنها من إدراك أمور تفيض عن الحاجات الضرورية للإنسان، وتتجاوز مستلزمات بقائه، وهذا ما يعطيها القدرة على التقاط نبضات الجمال التي يزخر بها العالم الخارجي، الأمر الذي لا يمكن تفسيره على أساس سنن الطبيعة وقوانين بقاء الأحياء وبمعزل عن وجود القصد والإرادة الحرّة، وذلك لأن قوانين المادّة وعوامل البقاء تقتضي أن

يمتلك الإنسان من الخصائص والقوى ما يجعله قادرًا على التوافق مع ظروف البيئة والانسجام مع شروطها ومتطلباتها، مما يمنحه إمكانية العيش ويزوده بالقدرة على البقاء.

ولكن حين نجد أن قدرات الإنسان والخصائص التي تمتلكها قواه الحسيّة تتميز بمقدار فائض عن حاجاته الحيوية، وبزيادة ملحوظة على متطلبات توافقه مع البيئة، فلنا حينئذ أن نتساءل عن العلة التي يصدر عنها مثل هذا الفائض، وعن الغاية من وجود هذه الزيادة في القدرة الإدراكية للحواس؟!

فإذا كانت عوامل البقاء وشروط التوافق مع البيئة تقتضي أن يمتلك الإنسان قدرة معيّنة على السّمع ودرجة خاصة من الإبصار تستقيم معهما حياته ويحافظ بهما على وجوده، فمن أين يأتي ذلك الفائض البعيد المدى في قدرة العين والأذن ليجعلهما تستشعران أمورًا تفوق الحاجة وتتجاوز متطلبات البيئة، فتهيئان النفس للإحساس بالروعة وتمهدان لها الطريق للإعجاب بالجمال؟![1].

أليس الأقرب إلى منطق الأمور هو الاعتقاد بوجود عقل مدبّر أراد لحواسّ الإنسان أن تتجاوز في قدراتها الإدراكية حدود الحاجات الضرورية وتتعدّى متطلبات البقاء ؟

والأمر عينه يصدق على المقدمة الرابعة: "ابتهاج النفس بالجمال"، فكما يوجد فائض في قدرة الحواس على الإدراك يؤهّلها للتفاعل مع آيات الجمال، فإنه يوجد فائض مماثل تغتني به النّفس المتأثّرة بالجمال، حيث نراها تمتلك

1 - يحاول بعض المنظرين حلّ هذه المعضلة بطرح فرضية مفادها أن تطور بعض القدرات قد يحصل بصورة مستقلة عن الحاجة إليها، فيفترض فرضًا لتطوّر بعض الأعضاء، ليس له أي دليل علمي عليه، وهو مع ذلك يتمسك به ويجعله قاعدة من قواعد التطور.

من المشاعر ما لا صلة له البتّة بالحفاظ على حياة الكائن أو باستمرار وجوده، بل هي مشاعر تختلف في وظيفتها عن غيرها من المشاعر، إذ إنها تهب الإنسان شعورًا بالبهجة ونفحةً من التّسامي، لا تستثيرهما المشاعر والأحاسيس الأخرى من قبيل الإحساس بالجوع والعطش، أو من قبيل الشعور بالخوف والأمن مما يقوم بدور جليّ في عملية حفظ الحياة واستمرار الوجود.

فما هو السرّ الكامن وراء هذا الفيض من المشاعر والتي لا علاقة لها بواقع الحاجة ولا بشروط البقاء؟

أليس التفسير الأكثر معقولية هو التسليم بوجود عقلٍ مُبدع أراد لبعض الكائنات أن تتميّز نفوسها بامتلاك مشاعرَ من نوع خاص تمكّنها من الابتهاج بالجمال والتمتّع ببهاء آثاره ؟

بهذا تتآلف المقدّمات وتكتمل النتيجة، حيث تشير كلّ واحدة من المقدّمات الأربع بخصوصها إلى استبعاد الصدفة وإلى وجود قصدٍ وتدبير، ثمّ وبضمّ المقدمات إلى بعضها نجد أنفسنا أمام توافق دقيق وتكامل عجيب بين هذه المقدمات جميعها، حيث يتناغم كلٌّ من العالم الخارجي وأجهزة الإدراك الحسي ومشاعر النفس المتعلقة بالجمال، ليتشكّل بذلك انسجام فريد بين ما يُظهره العالَم الخارجي من عناصر زائدة على الضرورة، وبين ما تتميّز به أجهزة الإدراك الحسّي من قدرات فائقة، وبين ما تتمتّع به النفس من مشاعر الابتهاج، وهذا مما لا يمكن أن تعلّله الصدفة أو يبرّره الاتفاق والضرورة، فيتضح جليًا أن الجمالَ يشكّل دليلاً ساطعًا على وجود صانع مدبّرٍ مبدعٍ للكون وقائم على إدارة شؤونه.

وهذه حقيقة لافتة قد استقطبت العديدين من أهل الفكر وأرباب القلم، فعبّروا عنها ببيانات ساحرة، تتّسم في

الوقت عينه بالعمق والنفاذ.

يقول "ا.كريسي موريسن": (والطبيعة إذا لم تنلها يد التشوية، تبدو وكأنها أُعدّت لكي تستدرّ أسمى الشعور في نفوسنا، وتلهمنا الإعجاب بصنع الخالق الذي وهبنا نعمة الجمال، تلك التي لا يدركها بكل كمالها غير الإنسان ! والجمال هو الذي يرفع الإنسان وحده إلى درجة يكون فيها أقرب إلى الله)[1].

ويقول مؤلفا كتاب: "العلم في منظوره الجديد": (والبشر يلحظون يد الله في نُدفة الثلج وفي غروب الشمس وفي حقل الأعشاب، وعظمة الجمال وجلاله يحملان توقيع الله الذي لا شبهة فيه)[2].

ويقول "توماس مان": (الجمال وحده إلهي ومرئي معًا)[3].

ويُورد الكاتب اليوناني "نيكوس كازنتزاكي" هذا الحوار:

(قلت لشجرة اللّوز...

حدّيثني عن الله يا أختِ..

فأزْهرت شجرة اللوز...)[4].

تشكّل هذه النصوص غيضًا من فيض مما يمكن نقله عن كبار الفنانين والأدباء والمفكّرين الذين عبّروا عن تجلّي صفات الله وأسمائه الحسنى في حقيقة الجمال، غير أن المجال يضيق عن الاسترسال في إيراد المزيد.

1 - العلم يدعو للإيمان، مرجع سابق، ص136.

2 - العلم في منظوره الجديد، مرجع سابق، ص178.

3 - نفسه، ص78.

4 - نيكوس كازنتزاكي: مذكرات كازنتزاكي ج1، تعريب ممدوح عدوان، دار ابن رشد للطباعة والنشر، ط1، 1980، ص234.

ملاحظات ختامية

وفي الختام أجد أنه لا بد لاستكمال البحث من تسجيل الملاحظات التالية:

أولاً: إن همّنا في هذا البحث كان منصبًّا في المقام الأول على تأصيل دليل الجمال وبيان أُسسه، ولذلك قصرنا الحديث على الاستدلال على وجود الله فقط دون سائر النتائج التي يمكن ترتيبها على هذا الدليل، من قبيل إثبات وحدانيته تعالى، أو غير ذلك من صفاته العليا تقدّست أسماؤه.

ثانيًا: إننا وإن كنا قد سلّطنا بعض الضوء على موضوع الجمال في القرآن الكريم، وطرحنا نوعًا من التصنيف للجهات التي قاربت بها الآياتُ القرآنية ظاهرةَ الجمال، مما يشكّل مفتاحًا ضروريًا لدراسة الرؤية القرآنية للجمال، غير أن الموضوع يحتاج إلى أبحاث أخرى متعدّدة، والى جهود متضافرة لتجلية حقيقة الرؤية القرآنية للجمال، ولاستخراج الثمرات المتنوّعة لتلك الرؤية الفذّة، والتي يمكن أن يكون من جملتها تلمّسُ بعض جوانب الإعجاز للكتاب العزيز، لا سيما إذا ما توفّرت بعض الأبحاث التاريخية والمقارنة والتي يُناط بها دراسة قضية الجمال في تاريخنا الفكري وفي الكتب المقدّسة للأديان السماوية الأخرى، ثم مقارنة النتائج بالرؤية القرآنية للجمال.

فإن ما يظهر بدوًا وعبر النظرة الأولية هو أنّ طرح مفهوم الجمال كموضوع من موضوعات الرؤية الكونية، وكمكوّنٍ من مكوّنات النظرة الفلسفية للعالم إنما كان فتحًا قرآنيًا في تاريخنا الفكري. ويبدو أيضًا أن العناية الواسعة بقضية الجمال في القرآن الكريم لم يقابلها عناية مماثلة

في تاريخنا الفكري الذي سبق نزول الوحي ولا في الكتب المقدسة لدى الأديان السماوية الأخرى.

فإذا صحّ ذلك فإنه يكشف عن فرادة قرآنية تصبّ في خانة الإعجاز. ولكن الأمر يتطلّب دراساتٍ دقيقة ومتأنية حتى يمكن القطع بمثل هذه النتيجة.

ثالثًا: قد يظن البعض أن الجمال لا يصلح أن يشكّل دليلاً على وجود الله إلا بناءً على القول بأن حقيقة الجمال هي من الحقائق المطلقة لا من الحقائق النسبية، ولكن الواقع هو أن الطريقة التي عالجنا بها دليل الجمال لا تعتمد على ذلك، بل هي تنسجم حتى مع القول بنسبية الجمال، وذلك لما بيّناه من أن الجمال يمثّل عنصرًا زائدًا على الضرورة، وأن الإنسان مزوّد بقوى حسيّة وبمشاعر نفسيّة فائضة على مستلزمات البقاء، مما يُفضي إلى القول بوجود قدرة مدركة ومريدة تقف وراء تلك الأمور كلها وتُحدث ذلك التوافق العجيب بينها، مما يمهّد للإنسان أن يدرك الجمال ويبتهج لحضوره، فيكفي في مسألتنا أن نُثبت ذلك لنصل من خلاله إلى النتيجة المطلوبة من بحثنا، وليس من الضروري فيما يتعلق بهذه النتيجة أن تكون النظرة إلى الجمال واحدة، لا بالنسبة إلى الأشخاص المختلفين من أبناء البيئة الواحدة، ولا بالنسبة إلى المجتمعات والأزمنة المتعددة والمتباينة، وذلك لأن الاختلاف حول جمال هذا الشيء أو ذاك، لا يُلغي ما سبق أن بيّنّاه من وجود عنصر زائد على الضرورة في الكون، كما لا يلغي ضرورة وجود قوى حسية ومواهب شعورية خاصة، هي التي تمكّن الفرد من الإحساس بجمال الشيء وتهب النفس القدرة على الابتهاج، حتى لو اختلف الأفراد فيما بينهم بعد ذلك في الحكم والتقدير.

رابعًا: لم نبين في طيات البحث - وبصورة واضحة -

الموقع الذي يشغله دليل الجمال مقارنة بغيره من الأدلة، فهل هو تابع لدليل النظم بحيث يمثّل واحدة من مفرداته، أم إنه ينضوي تحت غيره من الأدلة، أو هو يشكل دليلا خاصا فيتفرد عن كل ما سواه ؟

وإذا كان المقام لا يسمح هنا بتفصيل المسألة، فإننا نكتفي بإيراد هذه الملاحظة السريعة فيما يتعلق بالسؤال المذكور:

إن الجمال قد يدرس من ناحية إتقان الصنع ودقة التكوين، فينضوي بذلك تحت دليل النظم، ويشكل إحدى مفرداته البارزة.

وقد يدرس الجمال من ناحية التجربة الحية والتأمل المباشر، حيث يسمو الجمال بالإنسان من خلال هذه التجربة وعبر هذا التأمل، فيفتح أمام بصيرته منافذ الغيب ويصله بالأفق الأعلى. وهذا ما يجعل من الجمال طريقًا خاصًا من طرق المعرفة، ويحدو به ليشكل دليلاً مستقلاً.

* * *

وأخيرًا، وبعد اللُّتيا والتي، لا ريب أن الجمال يمثّل كنزًا ثمينًا من كنوز هذا الوجود، ونعمة عظيمة من نعم المولى سبحانه، فيجدر بنا أن نشكر تلك النعمة بتوجيه عنايتنا إليها، فندرس الجمال لذاته وبما ينطوي عليه من قِيم ذاتية، ونبحثه لغايته وبما يشتمل عليه من قِيَم دلالية، فهو من الناحية الأولى يؤنس الحسّ ويبهج النفس، وهو من الناحية الثانية يحثُّ الفكر ويُحرّك العقل، ويعبر بالإنسان من النسبية والمحدودية إلى المطلق واللانهائية.

إن الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق، ولا شك في أن الجمال هو واحد من أقرب تلك الطرق إليه سبحانه.

ملحق

مقدمة

كنت قد استقيت في معرض البحث أحد نماذج الجمال الفريدة من خطبة [الطاووس] الواردة في (نهج البلاغة) للإمام علي عليه السّلام.

وقد اقتصر الأمر هناك على الاستشهاد ببضع كلمات من الخطبة، وفقًا لما اقتضاه المورد.

ولكن لمّا كانت هذه الخطبة على سموّ بيانها وغنى مضمونها لم تحظَ في عالم الأدب والفكر بالعناية الملائمة من الدراسة والبحث، فقد رأيت أن أورد ما يرتبط منها بموضوعنا في ملحق خاص، يُيسر للقارئ مطالعتها، ويلفت انتباه الباحث إلى دفائن كنوزها.

وإذا لم يكن المقام مقام توسّع في دراسة الخطبة وتحليلها، إلا أنني وجدت من الضروري التوطئة ببضع ملاحظات مختصرة تبيّن بعض خصائص الخطبة وتشير إلى جانب من مميزاتها.

ويبدو أن إحدى السّمات المهمة الجديرة بالانتباه تتمثّل فيما اتصفت به الخطبة من (جامعية) استطاعت من خلالها أن توفّق بين المختلفات، وأن تُقارب بين المتباعدات.

ولبيان حقيقة هذه السمة نقول: إن الفكر الإنساني يتجلّى بصورة عامة في ثلاثة ميادين كبرى، هي: ميدان العلم، وميدان الفلسفة، وميدان الفن (ومن ضمنه الفنون الأدبية)، وكل واحد من هذه الميادين الثلاثة يتميّز عمومًا بنهج معين، ويستخدم لغة خاصة.

بيد أن الأمر اللافت في خطبة (الطاووس) هو أنها تطرح

الوقائع العلمية، وتستنبط الحقائق الفلسفية، وتعالج الموضوعات الأدبية في نسيج واحد، يعلوه بيان فنيّ رفيع. فهي تعجن العلم والفلسفة بالأدب، وتخمّر الأدب بالعلم والفلسفة، لتبدع بذلك كلاً موحدًا وفريدًا، يصطفي من العلم دقّته، ومن الفلسفة عمقها، ومن الأدب حلاوته.

فدعنا نستعرض بإيجاز جانبًا من ملامح هذه السمة، مع ذكر بعض أمثلتها، تاركين التفصيل إلى مقام آخر.

أولاً: الميدان العلمي

أ - إن الموضوع الرئيس الذي يدور حوله الكلام في الخطبة هو الطيور، وخصوصًا الطاووس. والملاحظ هو أن الخطبة تتوخّى وصف موضوعها هذا وصًفا علميًا مطابقًا للواقع العيني، لذلك نراها ترسم صورة مفصلة وصادقة لموصوفها، فتلحظ من جهة سماته الظاهرة وما يبدو منه للعيان، وتتتبّع من جهة أخرى دقائق تركيبه وخفي أجزائه.

ولسنا بحاجة لسرد الأمثلة المتعلقة بالجهة الأولى، لوضوحها ووفرتها في متن الخطبة، وسنكتفي بإيراد الأمثلة المتعلقة بالجهة الثانية لنلفت نظر القارئ إليها.

يصف عليه السّلام كيفية تركيب أجنحة الطيور فيقول: (وركّبَها في حِقَاقِ مفاصل مُحتَجِبَةٍ...)، والحقاق: جمع حُقٍّ، وهو مجمع المفصلين من الأعضاء. وهي محتجبة لأنها مستورة بالجلد واللحم.

ويبين عليه السّلام بعض دقائق تكوين ساق الطاووس، فيقول: (وقد نَجَمَت من ظُنْبُوبِ ساقه صِيْصِيَّةٌ خَفِيَّة...)، ومعنى نجمت: ظهرت. والظنبوب: حرف الساق. والصيصية: الشوكة.

ويلفتنا عليه السّلام إلى الشعرة الواحدة من شعرات الطاووس، ليبرز لنا ما تختزنه من اختلاف الألون، فيقول: (وإذا تَصَفَّحْتَ شَعْرَةً من شَعَرَاتِ قَصَبِهِ، أَرَتْكَ حُمرةً

ورديّةً، وتارة خُضرةً زَبَرْجَدِيَّةً، وأحيانًا صُفرةً عَسْجَدِيَّةً...)، والزبرجد: من الأحجار الكريمة. والعسجد: الذهب.

يتضح من هذه العبارات كيف أن الخطبة تلحظ ما (احتجب) من أجزاء الطاووس، وتشير إلى ما (خفي) من تركيب ساقه، بل تلتفت حتى إلى الشعرة الواحدة من شعرات قصبه وما تُبديه من تعدّد الألوان وتنوّعها، لا يشغلها عن ذلك الجمال الكلي للطاووس، وما يمتاز به من ألوان ظاهرة للعيان.

ب - لا تكتفي الخطبة بإيراد المعلومات الدقيقة حول موضوعها، بل إنها تتعدّى ذلك إلى مناقشة بعض المزاعم الخاطئة فتردّها، وتبين ما هو الصواب في المسألة. ومثال ذلك مناقشة الزعم القائل بأن الطاووس يُلقِح بدمعة تسفحها مدامعه.

ج - تصدر الخطبة في جانبها العلمي عن منهج علمي واضح ومحدد، هو منهج المعاينة في المشاهدات، وهو المنهج الذي نصّ عليه الإمام عليه السّلام بالقول: (أُحِيلُكَ من ذلك على مُعايَنَةٍ، لا كَمَنْ يُحِيلُ على ضَعِيْفِ إسنادِهِ).

د - لعل القارئ يتذكر ما استفدناه في ثنايا البحث من بعض كلمات الخطبة عند مناقشة موضوع أصالة الجمال، حيث استشهدنا هناك بقوله عليه السّلام: (وقَلَّ صِبْغٌ إلا وقد أَخذَ منه بقِسْطٍ، وعلاه بِكَثْرَةِ صِقَالِهِ وبَرِيقِهِ وبَصِيصِ دِيبَاجِهِ ورَوْنَقِهِ). وكذلك قوله عليه السّلام (فهو كالأزاهيرِ المبْثُوثَةِ لم تربِّها أمطارُ ربيعٍ ولا شموسُ قَيْظٍ)، وبيّنا كيف أن الطاووس يعلو بجمال تكوينه على البيئة ويتجاوز واقعها، مما يفضي بنا إلى القول بأصالة الجمال.

فهاهنا ناحيتان، أولاهما: تجاوز البيئة، وثانيتهما: أصالة الجمال. وقد استبطن كلام الإمام عليه السّلام كلتا الناحيتين بصورة مكثفة وعميقة. وما يهمنا هنا هو الناحية

الأولى بالخصوص لارتباطها بالميدان العلمي، حيث نجد أن الخطبة تستبطن موقفا نظريا من مسألة العلاقة بين البيئة والأحياء، فتضرب لنا مثلا بالطاووس لتدلل بذلك على حقيقة تجاوز بعض الأحياء لبيئتها، وسموها عليها.

وأماالناحية الثانية، أي قضية أصالة الجمال، فهي ترتبط بالميدان الفلسفي الآتي ذكره.

وخلاصة الأمر فيما يرتبط بالميدان العلمي، هي أن الخطبة تلتزم في طرحها الطريقة العلمية بشروطها المفروضة، كما أنها تنص على المنهج العلمي الذي التزمنه، فهي إذًا تلاحظ المنهج ولا تكتفي بسرد الوقائع. هذا إضافة إلى أنها تتبنى - ولو بصورة ضمنية - موقفا نظريا من مسألة علاقة الأحياء ببيئتها.

ثانيًا: الميدان الفلسفي والعقائدي

أ - نلاحظ -فيما يرتبط بهذا الميدان- أن الخطبة لم تقتصر على التوصيف العلمي لموضوعها، بل إنها قامت بهذا التوصيف لتستخلص منه ما يبتني عليه من نتائج فلسفية ومن أغراض عقائدية، ولذلك نجد أن الإمام عليه السّلام يستنبط من الوقائع العلمية نتيجتين فلسفيتين، أولاهما: قصور العقل أمام عظمة الخلق. وثانيتهما: رجوع الأمر إلى مدبّر قادر وحكيم.

من ذلك قوله عليه السّلام: (فكيف تَصِلُ إلى صِفَةِ هذا عَمائِقُ الفِطَنِ (...) وأَقَلُّ أجزائِهِ قد أَعجَزَ الأوهامَ أن تُدرِكَهُ، والألسِنَةَ أن تَصِفَهُ).

وكذلك قوله: (فأقامَ من شواهدِ البيّناتِ على لطيفِ صَنْعتِهِ وعظيمِ قُدرتِه ما انقادتْ له العقولُ مُعترِفةً به ومُسلِّمةً له. ونَعَقَتْ في أسماعِنا دلائلُه على وَحْدَانِيَّتِهِ).

ب - ذكرنا أثناء حديثنا حول الميدان العلمي موقف الخطبة من قضية أصالة الجمال، وقلنا أن هذا الموضوع

يرتبط بالميدان الفلسفي، وقد توسعنا فيه في متن البحث، فلا نجد ضرورة للإعادة، فليراجع هناك.

يتبيّن من كل ماسبق أن الجانب العقائدي والبعد الفلسفي حاضران جليّان في متن الخطبة.

ثالثًا: الميدان الفني والأدبي

إن هذا الميدان متشعب الجهات متعدد الجوانب في الخطبة، وهذا ما دعانا للاقتصار على بعض المميزات الخاصة، وإغفال العديد من الخصائص الأخرى مما يرتبط بفنون البلاغة وموسيقى النظم وما يتبع ذلك من نواحٍ مشابهة.

ويمكننا أن ننبّه فيما يرتبط بهذا الميدان إلى الملاحظات التالية:

أ - إذا رجع القارئ إلى متن الخطبة فإنه سرعان ما يشعر بغنى مضمونها، ومما لا شك فيه أن غنى المضمون يُعدّ من العوامل التي تسمو بالنص الأدبي، وترفع من قيمته المعنوية.

ونحن يمكننا تلمّس غنى مضمون الخطبة من خلال سعة دائرة المعارف التي استخدمها الإمام عليه السّلام لتجلية الموضوع الرئيس وتبيان معالمه. فالموضوع الرئيس يتمثل بالطيور، وبجملة من شؤونها، والمقدار الأكبر منه يتعلق بالطاووس خصوصًا. غير أن الخطبة ولكي تُظهر موضوعها بأجلى صوره، نجدها قد استعانت بمعارف شتى ترتبط بالملابس وأصنافها، وبالحلي وأنواعها، وبنبات الأرض وأزهارها، وبأشرعة المراكب ومميزاتها...

والمقام يضيق عن التمثيل لكل هذه الأمور، وهو ظاهر جلي في متن الخطبة، فيمكن الرجوع إليه هناك.

ولا يخفى بعد ذلك ما لهذا التنويع من أثر في إغناء النص

وفي تلوين محتوياته، مما يحبوه بفوائد معرفية، وبتشويق أدبي ومتعة فنية.

ب - لا شك في أن ما بيّناه في النقطة السابقة من غنى المضمون يستدعي للتعبير عنه ثروة لفظية واسعة، وهذا ما جعل الخطبة تشتمل على معجم لغوي كبير، يغطي مساحات مختلفة من حقول المعاني.

ويكفينا للتدليل على ذلك أن نمثّل بحقل واحد من هذه الحقول، وهو الحقل المتعلق بجمال المنظور وما يرتبط به من شكل ولون، على أننا ورومًا للاختصار، سنكتفي بإيراد بعض نماذج هذا الحقل دون استيعابها.

وهذه نبذة منها:

قال عليه السّلام: (ونَسَقَها على اختلافِها في الأصابيغِ...)، (فمنها مغموسٌ في قَالِبِ لونٍ لا يَشُوبُهُ غيرُ لَوْنِ ما غُمِسَ فِيهِ...)، (ونَضَّدَ ألوانَه في أحسنِ تَنْضِيدٍ...)، (تَخَالُ قَصَبَهُ مَدَارِيَ من فِضَّةٍ، وما أُنْبِتَ عَليْها من عَجيبِ دارَاتِهِ وشُموسِهِ خالِصَ العِقْيَانِ وفِلَذِ الزَّبَرْجَدِ...)، (فهو كَمَوْشِيِّ الحُلَلِ، أو مُونِقِ عَصْبِ اليَمَنِ...)، (فهو كفُصُوصٍ ذاتِ ألوانٍ قد نُطِّقَتْ باللُّجَيْنِ المُكَلَّلِ...)، (وَلَهُ في مَوْضِعِ العُرْفِ قَنْزُعَةٌ خضراءُ مُوَشَّاةٌ...)، (كَصِبْغِ الوَسِمَةِ اليَمَانِيَّةِ...)، (إلا أَنَّهُ يُخَيَّلُ لِكَثْرَةِ مائِهِ وشِدَّةِ بَرِيقِهِ أن الخُضْرَةَ الناضِرَةَ مُمْتَزِجَةٌ بِهِ...)، (أبيضُ يَقِقُ...)، (فهو بِبَياضِهِ في سوادِ ما هنالك يَأْتَلِقُ...)، (وقَلَّ صِبْغٌ إلا وقد أَخذَ منهُ بِقِسْطٍ، وعَلاهُ بِكَثْرَةِ صِقَالِهِ وبَرِيقِهِ وبَصِيصِ دِيْبَاجِهِ وَرَوْنَقِهِ)...

إنها نماذج مجتزأة من الخطبة، ولكنها مع ذلك تكفي للتدليل على غنى المتن بالكلمات والتراكيب المعبّرة خير تعبير عن جمال المنظور وخصائصه، مما يؤسس للغة راقية ومصطلحات شاملة تنفع الفنان التشكيلي والناقد

الفني في مقام التعبير عن الموضوعات الجمالية ووصفها.

ولعله آن الأوان - بعد هذه القرون المتطاولة - لكي نلتفت إلى وجه آخر من وجوه عظمة الإمام علي بن أبي طالب عليه السّلام ألا وهو وجه (عالِم الجمال) والذي لم يحظ من العناية والاهتمام حتى بأقل القليل. وقد وضعنا عبارة (عالم الجمال) بين مزدوجين لأننا أردنا بها المعنى الأعم، وليس المعنى الإصطلاحي الحديث.

ج - إن أحد مواطن السحر في الخطبة يكمن في تعدد اللقطات للمشهد الواحد، وذلك لكي يتجلى الموصوف بأوسع صورة، ويظهر بأكمل ظهور، ومن هذا الباب قوله عليه السّلام: (وقد يتحسَّرُ من ريشِهِ، ويَعْرى من لِبَاسِهِ، فيَسقُطُ تَتْرَى، ويَنْبُتُ تِبَاعًا، فَيَنْحَتُّ مِن قَصَبِهِ انْحِتَاتَ أوراقِ الأغصانِ...).

فانظر كيف تعددت صور التعبير عن مشهد سقوط ريش الطاووس عبر حركة الأفعال المضارعة ومتعلقاتها، وهي (يتحسر- يعرى – يسقط - ينحتُّ) حيث تشير العبارات جميعها إلى المراد عينه، ولكن من خلال صور مختلفة وظلال متنوعة.

ومن هذا القبيل أيضًا قوله عليه السّلام: (فإنْ شَبَّهْتَهُ بِما أنْبَتَتِ الأرضُ قُلْتَ جَنِيٌّ جُنِيَ مِن زهْرةِ كلِّ ربيعٍ. وإن ضاهيْتَهُ بالملابِسِ فهُوَ كَمَوْشِيِّ الحُلَلِ، أو مُونِقِ عَصْبِ اليَمَنِ. وإن شاكلتَه بالحُلِيِّ فهو كفُصُوصٍ ذاتِ ألوانٍ...). فإننا نجد هنا - كما في النص السابق - تلوينًا تعبيريًا يتمثل في قوله عليه السّلام: (شبّهته - ضاهيته - شاكلته)، ولكننا نجد إضافة إلى ذلك عملية استقصاء للمشبَّه به، وتتّبع لوجوهه، حيث نرى المشبّه الواحد وهو الطاووس، قد شبّه مرة بما تنبت الأرض، وأخرى بالملابس، وثالثة بالحلي..، الأمر الذي يثري الوصف، ويوسع من حدود

صورة الموصوف، لتظهر هذه الصورة وقد انطوت على أبدع ما تنبت الأرض، وعلى أفخر الحلي، وعلى أزهى الحلل، فتبلغ بذلك ذروة الجمال وتنتهي إلى غاية الشمول.

د - نلحظ إحدى اللمسات الفنية الرفيعة للخطبة في عملية الترقي بالموصوف الواقعي إلى ما فوق الواقع المألوف، ليَظهر بذلك مبلغُ كماله وغرابةُ حقيقته.

ومن أمثلة ذلك قوله عليه السّلام: (وقَلَّ صِبْغٌ إلا وقد أخذَ منهُ بِقِسْطٍ، وعَلاهُ بِكَثْرَةِ صِقَالِهِ وبَرِيقِهِ وبَصِيصِ دِيْبَاجِهِ وَرَوْنَقِهِ)، فإنك تجد هنا مخلوقًا قد فاق بصفاته ومظاهر جماله كل واقع، فهو من جهة يكاد يجمع كل صبغ تقع عليه العين في دنيا الطبيعة، ولكنه من جهة أخرى يعلو على جميع تلك الأصباغ بكثرة صقاله، وبريقه، وبصيص ديباجه، ورونقه. مما يجعل عناصر الجمال لدى الطاووس تسمو على مثيلاتها لدى الكائنات الأخرى، حتى تبدو وكأنها تنتمي إلى أفق أخر بعيد المسافة عن كل الواقع المشهود.

ومن أمثلة ذلك أيضا قوله عليه السّلام: (فهُوَ كالأزاهيرِ المبْثُوثَةِ لمْ تُرَبِّهَا أَمْطَارُ رَبِيعٍ وَلاَ شُمُوسُ قَيْظ)، حيث شبّه عليه السّلام زخرفة الطاووس وتشكيله اللوني بالأزاهير المبثوثة، غير أن الأزاهير المعروفة تعتمد في تكوّنها وفي سيرورة تفتحها على حرارة الشمس وأمطار السماء، بينما نجد أن أزاهير الطاووس تظهر إلى الوجود من غير حاجة لا إلى شمس ولا مطر، فهي تنتسب إلى واقع يعلو على الواقع المحسوس، وتحكمها قوانينُ تتجاوز قوانينَه، فكأنما هي قد هبطت من عالم المثل لتزيّن جسم الطاووس، وتجمّل مظهره.

وهذا لعمري فن مستقى من منهل آية النور، حيث يقول سبحانه: {...يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لا شَرْقِيَّةٍ وَلا

غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ }[1].

فالآية تضرب لنا مثلاً بشجرة غريبة عن أبصارنا جديدة على مسامعنا، إنها شجرة لا تنتمي لا إلى شرق ولا إلى غرب، وإنما تنبت في اللامكان، كما أن زيتها يكاد يضيء بذاته من غير حاجة إلى نار.

والآية تعلّمنا بذلك أن نور الله سبحانه يتنزه عن التشبيه بالمحسوسات، ولكن عند التنزل لأجل مقتضيات التقريب والتفهيم، فإنه لا بد حينئذ من الترقي بالمشبّه به إلى أعلى المستويات الممكنة من التجريد، وإلى أقصى الدرجات المحتملة من الكمال.

وبالأسلوب ذاته تعلّمنا خطبة (الطاووس) بدورها أنه هنالك حتى بين المخلوقات من كائنات عالم المادة ما هو عصي على التشبيه بالمألوف من المحسوسات، فكيف إذًا بخالقها ومبدع صورتها؟!

يتبين مما تمّ استعراضه في الميادين الثلاثة معنى ما ذكرناه من اتصاف الخطبة بسمة (الجامعية)، حيث عمد الإمام عليه السّلام إلى الدمج بين وقائع العلم وحقائق الفلسفة وفنون الأدب في حقل معرفي موحّد، يمثل العلم بأدق معانيه، والفلسفة بأعمق تجلياتها، والأدب بأبهى صوره، الأمر الذي يضعنا أمام مدرسة فكرية خاصة، هي بنت عقيدة التوحيد، والتي تتناغم فيها الوحدة مع الكثرة، وتتلائم لديها الكثرة مع الوحدة، وذلك خلافًا للمدارس التجزيئية المتداولة، والتي تشطر وحدة الحقيقة، وتفصل بين حقول المعرفة واضعة بينها الحواجز والسدود.

ولقد كان حريًا بنا عبر تاريخنا الثقافي الطويل أن نتعلم دروس هذه المدرسة التوحيدية، ونعمم طريقتها، ليكون

1 - النور: من الآية35.

لأمتنا أمة القرآن، نهجها الخاص وأسلوبها المميز.

لكننا ولشديد أسف، قد جلبنا لأنفسنا الحرمان، ورمينا بأيدينا إلى مهاوي الجهل، بعضنا عن تقصير وتهاون، وآخرون بدافع العصبية والحقد..، ولتفصيل المقال في هذا المجال مقام آخر.

وها نحن بعد هذه التوطئة نضع متن الخطبة بين يدي القارئ الكريم، علّنا نُساهم بمقدار وسعنا في محاولة الخروج عن صفة التقصير، والابتعاد عن نزعة التهاون.

خطبة الطّاووس

من خطبة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السّلام

يذكر فيها عجيب خلقة الطاووس[1]

ابْتَدَعَهُمْ خَلْقاً عَجِيباً مِنْ حَيَوَان وَمَوَات، وَسَاكِن وَذِي حَرَكَات، فَأَقَامَ مِنْ شَوَاهِدِ الْبَيِّنَاتِ عَلَى لَطِيفِ صَنْعَتِهِ، وَعَظِيمِ قُدْرَتِهِ، مَا انْقَادَتْ لَهُ الْعُقُولُ مُعْتَرِفَةً بِهِ، وَمُسْلِّمَةً لَهُ، وَنَعَقَتْ فِي أَسْمَاعِنَا دَلاَئِلُهُ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ[2]، وَمَا ذَرَأَ مِنْ مُخْتَلِفِ صُوَرِ الأَطْيَارِ[3] الَّتِي أَسْكَنَهَا أَخَادِيدَ الأَرْضِ، وَخُرُوقَ فِجَاجِهَا، وَرَوَاسِي أَعْلاَمِهَا، مِنْ ذَاتِ أَجْنِحَة مُخْتَلِفَة، وَهَيْئَاتٍ مُتَبَايِنَةٍ، مُصَرَّفَةٍ فِي زِمَامِ التَّسْخِيرِ[4]، وَمُرَفْرِفَةٍ بِأَجْنِحَتِهَا فِي مَخَارِقِ الْجَوِّ الْمُنفَسِحِ وَالْفَضَاءِ الْمُنفَرِجِ.

كَوَّنَهَا بَعْدَ إِذْ لَمْ تَكُنْ فِي عَجائِبِ صُوَر ظَاهِرَة، وَرَكَّبَهَا فِي حِقَاقِ مَفَاصِلَ مُحْتَجِبَة[5]، وَمَنَعَ بَعْضَهَا بِعَبَالَةِ خَلْقِهِ أَنْ يَسْمُوَ فِي الْهَوَاءِ خُفُوفاً، وَجَعَلَهُ يَدِفُّ دَفِيفاً، وَنَسَقَهَا عَلَى

1 - نهج البلاغة، خطب الإمام علي عليه السّلام، ج 2، خطبة رقم 165، شرح الشيخ محمد عبده.

2 - نعقت من نعق بغنمه -كمنع- صاح.

3 - ذرأ: خلق. والأخاديد: -جمع أخدود-: الشق في الأرض، والخروق -جمع خرق-: الأرض الواسعة تتخرق فيها الرياح. والفجاج-جمع فج-: الطريق الواسع وقد يستعمل في متسع الفلا. والأعلام: جمع علم بالتحريك، وهو الجبل.

4 - يصرفها الله في أطوار مختلفة: تنتقل فيها بزمام تسخيره واستخدامه لها فيما خلقها لأجله. ومرفرفة: من رفرف الطائر بسط جناحيه. والمخارق: -جمع مخرق-: الفلاة، وشبه الجو بالفلاة للسعة فيهما.

5 - الحقاق: -ككتاب- جمع حق بالضم: مجتمع المفصلين، واحتجاب المفاصل: استتارها باللحم والجلد. والعبالة: الضخامة. ويسمو: يرتفع. وخفوفا: سرعة وخفة. ودفيف الطائر: مروره فويق الأرض، أو أن يحرك جناحيه ورجليه في الأرض. ويدف: بضم الدال.

اخْتِلاَفِهَا فِى الأَصَابِيغِ[1] بِلَطِيفِ قُدْرَتِهِ، وَدَقِيقِ صَنْعَتِهِ; فَمِنْهَا مَغْمُوسٌ فِي قَالَبٍ[2] لَوْن لاَ يَشُوبُهُ غَيْرُ لَوْنِ مَا غُمِسَ فِيه، وَمِنْهَا مَغْمُوسٌ فِي لَوْنِ صِبْغٍ قَدْ طُوِّقَ بِخِلاَفِ مَا صُبِغَ بِهِ.

وَمِنْ أَعْجَبِهَا خَلْقاً الطَّاوُوسُ، الَّذِي أَقَامَهُ فِي أَحْكَمِ تَعْدِيل، وَنَضَّدَ أَلْوَانَهُ فِي أَحْسَنِ تَنْضِيد[3]، بِجَنَاحٍ أَشْرَجَ قَصَبَهُ، وَذَنَب أَطَالَ مَسْحَبَهُ.

إِذَا دَرَجَ إِلَى الأُنْثَى نَشَرَهُ مِنْ طَيِّهِ، وَسَمَا بِهِ مُطِلاً عَلَى رَأْسِهِ[4] كَأَنَّهُ قِلْعٌ دَارِيٌّ عَنَجَهُ نُوتِيُّهُ.

يَخْتَالُ بِأَلْوَانِهِ، وَيَمِيسُ بِزَيَفَانِهِ، يُفْضِي كَإِفْضَاءِ الدِّيَكَةِ، وَيَؤُرُّ بِمُلاَقَحَةٍ أَرَّ الْفُحُولِ الْمُغْتَلِمَةِ[5] فِي الضِّرَابِ. أُحِيلُكَ مِنْ ذلِكَ عَلَى مُعَايَنَة[6]، لاَ كَمَنْ يُحِيلُ عَلى ضَعِيفِ إِسْنَادِهِ،

---

1 - نسقها: رتبها. والأصابيغ: جمع أصباغ - بفتح الهمزة - جمع صبغ بالكسر وهو اللون أو ما يصبغ به.

2 - القالب: مثال تفرغ فيه الجواهر لتأتي على قدره. والطائر ذو اللون الواحد كأنما أفرغ في قالب من اللون. وقوله (قد طوق): أي جميع بدنه بلون واحد إلا لون عنقه فأنه يخالف سائر بدنه كأنه طوق صِبغ لحليته.

3 - التنضيد: النظم والترتيب. وقوله (أشرج قصبه): أي داخل بين آحاده ونظمها على اختلافها في الطول والقصر وإذا مشى إلى أنثاه ليسافدها نشر ذلك الذنب بعد طيّه.

4 - سما به: أي ارتفع به، أي رفعه مطلاً على رأسه، أي مشرفًا عليه كأنه يظلله. والقلع: -بكسر فسكون- شراع السفينة. وعنجه: جذبه فرفعه، من عنجت البعير إذا جذبته بخطامه فرددته على رجليه. ويختال: يعجب. ويميس: يتبختر بزيفان ذنبه. وأصل الزيفان التبختر أيضًا ويريد به هنا حركة ذنب الطاووس يمينًا وشمالاً.

5 - يفضي: أي يسافد أنثاه كما تسافد الديكة جمع ديك. ويؤر: -كيشد- أي يأتي أنثاه. بملاقحة: أي مسافدة يفرز فيها مادة تناسلية من عضو التناسل يدفعها في رحم قابل. والمغتلمة: على صيغة اسم الفاعل، من اغتلم إذا غلب للشهوة. والضراب: لقاح الفحل لأنثاه

6 - أي إن لم يكفك الخبر فإني أحوّلك عنه إلى المعاينة فاذهب وعاين تجد صدق ما أقول.

وَلَوْ كَانَ كَزَعْمِ مَنْ يَزْعُمُ أَنَّهُ يُلْقِحُ بِدَمْعَة تَسْفَحُهَا مَدَامِعُهُ[1]، فَتَقِفُ فِي ضَفَّتَي جُفُونِهِ، وأَنَّ أُنْثَاهُ تَطْعَمُ ذلِكَ، ثُمَّ تَبِيضُ لاَ مِنْ لِقَاحِ فَحْل سِوَى الدَّمْعِ الْمُنبَجِسِ، لَمَا كَانَ ذلِكَ بَأَعْجَبَ مِنْ مُطَاعَمَةِ الْغُرَابِ[2]؟

تَخَالُ قَصَبَهُ مَدَارِيَ مِنْ فِضَّة، وَمَا أُنْبِتَ عَلَيْهَا مِنْ عَجِيبِ دَارَاتِهِ وَشُمُوسِهِ خَالِصَ الْعِقْيَانِ، وَفِلَذَ الزَّبَرْجَدِ[3]. فَإِنْ شَبَّهْتَهُ بِمَا أَنْبَتَتِ الأَرْضُ قُلْتَ: جَنِيٌّ جُنِيَ مِنْ زَهْرَةِ كُلِّ رَبِيع[4]، وَإِنْ ضَاهَيْتَهُ بِالْمَلابِسِ فَهُوَ كَمَوْشِيِّ الْحُلَلِ[5] أَوْ كَمُونِقِ عَصْبِ الْيَمَنِ، وَإِنْ شَاكَلْتَهُ بِالْحُلِيِّ فَهُوَ كَفُصُوصٍ ذَاتِ أَلْوَان، قَدْ نُطِّقَتْ بِاللُّجَيْنِ الْمُكَلَّلِ[6].

يَمْشِي مَشْيَ الْمَرِحِ الْمُخْتَالِ[7]، وَيَتَصَفَّحُ ذَنَبَهُ وَجَنَاحَيهُ،

---

1 - تسفحها: أي ترسلها أوعية الدمع. وضفة الجفن: استعارة من ضفتي النهر بمعنى جانبيه. وتطعم ذلك: -كتعلم- أي تذوقه كأنها تترشقه. ولقاح الفحل: -كسحاب-: ماء التناسل يلقح به الأنثى. والمنبجس: النابع من العين.

2 - لما كان ذلك بأعجب: أي لو صح ذلك الزعم في الطاووس لكان له نظير فيما زعموا في مطاعمة الغراب وتلقيحه لانثاه حيث قالوا إن مطاعمة الغراب بانتقال جزء من الماء المستقر في قانصة الذكر إلى الأنثى تتناوله من منقاره. والمماثلة بين الزعمين في عدم الصحة. ومنشأ الزعم في الغراب إخفاؤه لسفاده حتى ضرب المثل بقولهم: أخفى من سفاد الغراب

3 - القصب -جمع قصبة- هي عمود الريش. والمداري -جمع مدرى بكسر الميم- قال ابن الاثير المدرى والمدراة مصنوع من حديد أو خشب على شكل سن من أسنان المشط وأطول منه يسرح به الشعر المتلبد ويستعمله من لا مشط له. والدارات: هالات القمر. والعقيان: الذهب الخالص أو ما ينمو منه في معدنه. وفلذ -كعنب- جمع فلذة بمعنى القطعة. وما أنبت معطوف على قصبه. والتشبيه في بياض القصب والصفرة والخضرة في الريش.

4 - جنى أي مجتنى جمع كل زهر لانه جمع كل لون.

5 - الموشى: المنقوش المنمنم على صيغة اسم الفاعل. والعصب -بالفتح-: ضرب من البرود منقوش.

6 - جعل اللجين -وهو الفضة- منطقة لها. والمكلل: المزين بالجواهر. فكما تمنطقت الفصوص باللجين كذلك زين اللجين بها.

7 - المرح -ككتف- المعجب والمختال الزاهي بحسنه.

فَيُقَهْقِهُ ضَاحِكاً لِجَمَالِ سِرْبَالِهِ وَأَصَابِيغِ وِشَاحِهِ[1]; فَإِذَا رَمَى بِبَصَرِهِ إِلَى قَوَائِمِهِ زَقَا مُعْوِلاً بِصَوْت يَكَادُ يُبِينُ عَنِ اسْتِغَاثَتِهِ، وَيَشْهَدُ بِصَادِقِ تَوَجُّعِهِ، لاِنَّ قَوَائِمَهُ حُمْشٌ كَقَوَائِمِ الدِّيَكَةِ الْخِلاَسِيَّةِ[2].

وَقَدْ نَجَمَتْ مِنْ ظُنْبُوبِ سَاقِهِ صِيصِيَةٌ خَفِيَّةٌ[3]، وَلَهُ فِي مَوْضِعِ الْعُرْفِ قُنْزُعَةٌ خَضْرَاءُ مُوَشَّاةٌ[4]، وَمَخْرَجُ عَنُقِهِ كَالاْبْرِيقِ، وَمَغْرَزُهَا إِلَى حَيْثُ بَطْنُهُ كَصِبْغِ الْوَسِمَةِ الْيَمَانِيَّةِ[5]، أَوْ كَحَرِيرَة مُلْبَسَة مِرْآةً ذَاتَ صِقَال[6]، وَكَأَنَّهُ مُتَلَفِّعٌ بِمِعْجَر أَسْحَمَ[7]; إِلاَّ أَنَّهُ يُخَيَّلُ لِكَثْرَةِ مَائِهِ، وَشِدَّةِ بَرِيقِهِ، أَنَّ الْخُضْرَةَ النَّاضِرَةَ مُمْتَزِجَةٌ بِهِ، وَمَعَ فَتْقِ سَمْعِهِ خَطٌّ كَمُسْتَدَقِّ الْقَلَمِ فِي لَوْنِ الاُْقْحُوَانِ[8]، أَبْيَضُ يَقَقٌ، فَهُوَ

1 - السربال: اللباس مطلقًا أو هو الدرع خاصة والوشاح نظامان من لؤلؤ وجوهر يخالف بينهما ويعطف أحدهما على الآخر بعد عقد طرفه به حتى يكونا كدائرتين إحداهما داخل الأخرى كل جزء من الواحدة يقابل جزءا من قرينتها ثم تلبسه المرأة على هيئة حمالة السيف، وأديم عريض مرصع بالجواهر يلبس كذلك ما بين العاتق والكشح.

2 - زقا يزقو: صاح، وأعول فهو معول رفع صوته بالبكاء يكاد يبين أي يفصح عن استغاثته من كراهة قوائمه أي ساقيه. حمش - جمع أحمش - أي دقيق. والديك الخلاسي - بكسر الخاء - هو المتولد بين دجاجتين هندية وفارسية.

3 - وقد نجمت أي نبتت من ظنبوب ساقه أي من حرف عظمه الأسفل صيصية وهي شوكة تكون في رجل الديك. والظنبوب -بالضم- كعرقوب: عظم حرف الساق.

4 - القنزعة -بضم القاف والزاي - بينهما سكون-: الخصلة من الشعر تترك على رأس الصبي وموشاة: منقوشة.

5 - مغرزها: الموضع الذي غرز فيه العنق منتهيا إلى مكان البطن لونه كلون الوسمة وهي نبات يخضب به، أو هي نبات النيل الذي منه صبغ النيلج المعروف بالنيلة.

6 - الصقال: الجلاء

7 - المعجر - كمنبر -: ثوب تعتجر به المرأة فتضع طرفه على رأسها ثم تمر الطرف الآخر من تحت ذقنها حتى ترده إلى الطرف الاول فيغطى رأسها وعنقها وعاتقها وبعض صدرها وهو معنى التلفع ههنا. والاسحم الاسود.

8 - الأقحوان: البابونج. واليقق -محركا- شديد البياض

بِبَيَاضِهِ فِي سَوَادِ مَا هُنَالِكَ يَأْتَلِقُ[1].

وَقَلَّ صِبْغٌ إلاَّ وَقَدْ أَخَذَ مِنْهُ بِقِسْطٍ[2]، وَعَلاَهُ بِكَثْرَةِ صِقَالِهِ وَبَرِيقِهِ، وَبَصِيصِ دِيبَاجِهِ وَرَوْنَقِهِ[3]، فَهُوَ كَالأَزَاهِيرِ الْمَبْثُوثَةِ[4]، لَمْ تُرَبِّهَا أَمْطَارُ رَبِيعٍ[5]، وَلاَ شُمُوسُ قَيْظٍ. وَقَدْ يَتَحَسَّرُ مِنْ رِيشِهِ[6]، وَيَعْرَى مِنْ لِبَاسِهِ، فَيَسْقُطُ تَتْرَى[7]، وَيَنْبُتُ تِبَاعاً، فَيَنْحَتُّ مِنْ قَصَبِهِ انْحِتَاتَ أَوْرَاقِ الأُغْصَانِ[8]، ثُمَّ يَتَلاَحَقُ نَامِياً حَتَّى يَعُودَ كَهَيْئَتِهِ قَبْلَ سُقُوطِهِ، لاَ يُخَالِفُ سَالِفَ أَلْوَانِهِ، وَلاَ يَقَعُ لَوْنٌ فِي غَيْرِ مَكَانِهِ ؟

وَإِذَا تَصَفَّحْتَ شَعْرَةً مِنْ شَعَرَاتِ قَصَبِهِ أَرَتْكَ حُمْرَةً وَرْدِيَّةً، وَتَارَةً خُضْرَةً زَبَرْجَدِيَّةً، وَأَحْيَاناً صُفْرَةً عسْجَدِيَّةً[9].

فَكَيْفَ تَصِلُ إِلَى صِفَةِ هذَا عَمَائِقُ الْفِطَنِ[10]، أَوْ تَبْلُغُهُ قَرَائِحُ الْعُقُولِ، أَوْ تَسْتَنْظِمُ وَصْفَهُ أَقْوَالُ الْوَاصِفِينَ؟؟

وَأَقَلُّ أَجْزَائِهِ قَدْ أَعْجَزَ الأَوْهَامَ أَنْ تُدْرِكَهُ، وَالأَلْسِنَةَ أَنْ تَصِفَهُ ؟ فَسُبْحَانَ الَّذِي بَهَرَ الْعُقُولَ[11] عَنْ وَصْفِ خَلْقٍ جَلاَّهُ لِلْعُيُونِ، فَأَدْرَكَتْهُ مَحْدُوداً مُكَوَّناً، وَمُؤَلَّفاً مُلَوَّناً، وَأَعْجَزَ الأَلْسُنَ عَنْ تَلْخِيصِ صِفَتِهِ، وَقَعَدَ بِهَا عَنْ تَأْدِيَةِ نَعْتِهِ ؟

---

1 - يلمع.

2 - نصيب.

3 - علاه أي فاق اللون الذي أخذه نصيبًا منه بكثرة جلائه. والبصيص: اللمعان. والرونق: الحسن.

4 - الأزاهير: جمع أزهار جمع زهر.

5 - لم تربها، فعل من التربية. والقيظ: الحر.

6 - يتحسر هو من حسره أي كشفه، أي وقد يكشف من ريشه.

7 - تترى أي شيئا بعد شيء.

8 - ينحت: يسقط وينقشر.

9 - ذهبية.

10 - عمائق جمع عميقة.

11 - بهر العقول: قهرها فردها. وجلاه -كحلاه-: كشفه.

فَسُبْحَانَ مَنْ أَدْمَجَ قَوَائِمَ الذَّرَّةِ[1] وَالْهَمَجَةِ إِلَى مَا فَوْقَهُمَا مِنْ خَلْقِ الْحِيتَانِ وَالفِيَلَةِ ؟ وَوَأَى عَلَى نَفْسِهِ أَلاَّ يَضْطَرِبَ شَبَحٌ مِمَّا أَوْلَجَ فِيهِ الرُّوحَ، إِلاَّ وَجَعَلَ الْحِمَامَ مَوْعِدَهُ، وَالْفَنَاءَ غَايَتَهُ[2].

1 - الذرة: واحدة الذر: صغار النمل. والهمجة -محركة- واحدة الهمج: ذباب صغير يسقط على وجوه الغنم. وقوائمها: أرجلها. وأدمجها: أودعها فيها.

2 - وأى: وعد. والحمام: الموت.

الفهرس الموضوعي لآيات الجمال

الغاية من وضع هذا الفهرس هي جمع آيات الجمال في القرآن الكريم مما له ارتباط مباشر بموضوع بحثنا الآنف، وتصنيفها تصنيفا موضوعيًا على أساس المضمون المشترك لكل مجموعة من هذه الآيات.

ولذلك فإن هذا الفهرس لم يستوعب جميع الآيات التي تتحدث عن الجمال ومهما كان غرض الحديث أوغايته، بل اقتصر على الآيات ذات الصلة بالجمال من حيث هو موضوع من موضوعات الرؤية الكونية، وبما يتضمن من دلالات على المبدع الحكيم. كل ذلك بشرط أن يكون الموضوع الجمالي ظاهرا ظهورا بيّنا في الآية القرآنية، وليس مقحما إقحاما من خلال التوسع في الدلالة أو قبول الاحتمال الضعيف.

وعليه، فإننا لم نورد آيات من قبيل قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}[1]، وذلك لأن قوله تعالى {انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ} وإن كان قد يُستظهر منه أن المراد بالنظر هو النظر إلى جمال الثمر، ولكنه استظهار بعيد، والأظهر أن يكون المراد بالنظر هو نظر التدبر إلى ذات الثمر لاستجلاء ما فيه من إتقان في الصنع وحكمة في

1 - الأنعام: 99.

التدبير، فإرادة الجانب الجمالي ليست بينة في المقام.

وكذلك لم يشتمل هذا الفهرس على آيات من قبيل قوله تعالى {قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ}[1]، إذ رغم أن الكلام هنا يتعلق بجمال البقرة وما يؤدي إليه جمالها من مسرّة في نفس الناظر، غير أن السياق هو سياق تعيين تلك البقرة، وليس سياق إبراز الجمال من حيث هو تجل إلهي ونعمة ربانية.

وبهذا تتضح الضابطة التي راعيناها في اختيار الآيات، حيث لم يكن المقصود جمع كل الآيات المشيرة إلى معنى الجمال، أو التي استخدمت الألفاظ الدالة عليه، وإنما تمّ الاقتصار على المقدار الذي يُناسب موضوع البحث.

هذا، وأرجو من المولى سبحانه أن تشكِّل هذه البداية حافزاً لبعض الدارسين لتصنيف فهرس موضوعي أكثر شمولاً يستقصي الآيات القرآنية المشيرة إلى الجمال من نواحيه المختلِفة، فهو أمر جدير ببذل الجهد، خصوصًا وأن المتتبِّع قد يُفاجَأ حين يجد العديد من التفاسير الموضوعية المتداوَلة والتي بحثت موضوعات قرآنية متشعبة، قد أغفلت البحث في موضوع الجمال، مع أنه كان المترقَب منها أن تُفسِح مجالاً معتبرا وحيّزًا مناسبًا لمثل هذا البحث، سيما بعد ملاحظة تنوع المواضيع التي درستها هذه التفاسير، ومدى ما تميزت به من شمولية واستيعاب.

1 - البقرة: 69.

التصنيف الموضوعي للآيات

جمال المخلوقات وما فيها من زينة

{وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (5) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ (6) وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُواْ بَالِغِيهِ إِلاَّ بِشِقِّ الأَنفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَؤُوفٌ رَّحِيمٌ (7) وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(8)}

(سورة النحل)

{وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاء بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (16)}

(سورة الحجر)

{إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (6)}

(سورة الصافات)

{فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (12)}

(سورة فصلت)

{أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (6)}

(سورة ق)

{وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ(5)}

(سورة الملك)

عناصر الجمال (اختلاف الألوان)

{وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (13)}

(سورة النحل)

{ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاء لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (69)}

(سورة النحل)

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَات مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (27) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (28)}

(سورة فاطر)

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ (21)}

(سورة الزمر)

الأثر النفسي للجمال (البهجة)

{أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاء مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (60)}

(سورة النمل)

{وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (5) ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَّ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(6)}

(سورة الحج)

{وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (7) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (8)}

(سورة ق)

دلالات الجمال

بملاحظة جملة من الآيات السابقة , نجد أن بعضها قد ذُيّل بما يتضمنه الجمال من دلالة , وذلك من قبيل دلالته على دقة التقدير, وأنه يشكل آية للتفكر, والتذكر, والتبصر, كما أنه يثير خشية العلماء, ويفصح عن وحدانية الله وقدرته...

ونحن إذ نكرر ذكر بعض الآيات السابقة , فإنه يجدر الالتفات إلى الحيثية التي دعتنا إلى ذلك , وهي حيثية الدلالة التي يقود إليها موضوع الجمال.

التفكر - التذكر - التبصر - الخشية

{ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِن بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ

لآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (69)}

(سورة النحل)

{وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (13)}

(سورة النحل)

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَّ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ (21)}

(سورة الزمر)

{وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (7) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (8)}

(سورة ق)

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَّ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (27) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللهَّ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللهَّ عَزِيزٌ غَفُورٌ (28)}

(سورة فاطر)

الصفات الإلهية

التوحيد - العلم - حسن التقدير - القدرة - العزة

{أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ (60)}

(سورة النمل)

{فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (12)}

(سورة فصلت)

{وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (5) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(6)}

(سورة الحج)